المشرق

السنة الحادية والثلاثون — حزيران ١٩٣٣

الشيخ احمد الغرّ

والقضاء في بيروت قبل مئة عام

للدكتور اسد رستم

احد اساتذة التاريخ الشرقي بجامعة بيروت الاميركية

ان ما أظهره حضرة القاضي المؤرّخ الاستاذ وجيه افنـدي الخوري من الرغبة والاهتمام في تاريخ القضاء بلبنان، وما نشره على صفحات مجلة «المشرق» في هـذا الموضوع جدير بكل ثناء. فحبّذا الرغبة والاهتمام، ونعم العمل والنشر. ولما كنا نعتقد ان خير طريق لاظهار استحساننا لهذا العمل العلمي واحسن وسيلة لمكافأة القاضي المؤرّخ، هما ان نساعده على اكمال عمله هذا باظهار بعض الحقائق التاريخية التي يلوح لنا انها كانت بعيدة عن متناوله، جئنا الآن بكلمتنا هذه نذكر شيئاً عن بعض احوال القضاء في بيروت ولبنان قبل مئة عام.

لما باشرنا جمع الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، حاولنا

مراراً ان نقف على شيء من آثار المحكمة الشرعية في بيروت فرُددنا خائبين. ولما سألنا المغفور له السيد محمد افندي الكستي عن سجلات المحكمة البيروتية قال لنا انها لا ترجع الى ما قبل سنة ١٢٧٠ هـ. فاستغربنا كلامه وتتنذ واسفنا لضياع هذه السجلات. وقد ذكرنا شيئاً من هـذا القبيل في مقدمة كتابنا المشار اليه آنفاً.

ولما كنا نعلم الدور الذي مثّله الشيخ احمد الغر في سياسة البلاد وادارة محاكمها في عهد الامير بشير، سألنا البعض من اخواننا المسلمين عن آثاره الخطية، وطلبنا الى حفيده السيد احمد افندي الغر ان يساعـدنا في التفتيش، فتكرم ولبى الطلب، فاتحفنا ببعض الوثائق التي ترجع الى ذلك العهد وتحمل خاتم جده الاكبر.

واول ما لفت نظرنا منها هو نصف طبق من الورق الحكومي «اثر جديد» طوله ٣٠ س. وعرضه ٢٠، وعليه ترجمة الشيخ القـاضي المفتي. ويظهر من مضـون هذا الصكّ، ولهجته، ونوع ورقه، انه كتب بعـد وفاة الشيخ العالم او بمناسبة ذلك. واليك نصه بالحرف:

السـيد الشيخ احمد افندي ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ احمد ابن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ على ابن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ احمـد افندي قـاضي بيروت اسبق ابن الشـيخ عمر الغر البيروتي ولد بيوم الاحد الواقع في اليوم الثاني والعشرين خلت من شهر ربيع الثاني سنة١١٩٨ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلوة والتحيه وربي يتيماً ولما بلغ مبالغ الرجال تعاطى التجاره في البيع والشرآء وتولى القضا بمدينة بيروت في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام نهار الثلاثا ختام سنة ١٢٢٦ ثم تنزل عن القضآء المذكور لامر اقتضى ذلك في نهار الاثنين الثامن عشر من ذي القعدة الحرام سنة ١٢٣٧ ثم صدر مرسوم من دولة درويش باشا والي ايالة الشام وايالة صيدا اسبق بامر بنفيه الى اللاذقيه وذلك في نهار الجمعة الواقع في ٢٢ شهر ذي القعدة المذكور وقد توجه حسب الامر المذكور في ذلك اليوم بعد الغروب بحرا ثم صدر له مرسوم شريف من دولة والي ايالـة صيدا وتوابعها السيـد عبد الله باشا بالرجوع الى بلدتـه بيروت وان يكون حاكـماً شرعياً كما كان فرجع اليهـا في غرة شهر رمضان المبارك سنة ١٢٣٨ ثم وفي ١٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٠ وجهت عليه وظيفـة الافتا في بيروت وان يكون بها حاكـماً شرعياً ومفتياً ثم وفي اواخر سنة ١٢٤٩ عزل من وظيفـة القضا من بيروت وبقي بها مفتياً ثم في سنة ١٢٥٨ عزل من وظيفة الافتا وبقي مـدة وجيزة ثم تعين اعضا في مجلس ايالة صيدا في بيروت ثم تعين مفتياً في المجلس المومى اليه ثم وفي اواخر

شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٦٧ صار نفيه الى طرابلس الشام لامر اقتضى ذلك بموجب فرمان عاليشان من جانب دولتنا العلية العثمانيه في مدة المرحوم والمغفور له السلطان ابن السلطان السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود ابن السلطان عبد الحميد خان ادام الله تعالى سرير هذه الدولة السعيدة الى انتهآء الزمان وانقراض الدوران واستقام في طرابلس نحو اربعة اشهر ثم رجع الى بلدته بيروت بموجب فرمان عالي شان ايضاً .

وايضاً لما بلغ من العمر نحو اثنتان او ثلاث وعشرون سنة قرآء على شيخنا واستاذنا افتخار العلمآء الكرام العالم الفاضل والجهبذ الامام الكامل المرحوم والمغفور له السيد الشيخ عبد اللطيف افندي فتح الله المفتي ابن المرحوم السيد الشيخ علي افندي مفتي بيروت اسبق رحمهم المعيد المبدي المعقول والمنقول وتلقى عنه جل العلوم من منطوق ومفهوم كما انه تلقى أكثر ذلك عن مشايخه الذين منهم افتخار العلماء والموالي الكرام ونخبة الفضلاء والمدرسين الفخام السيد محمد امين افندي ابن عثمان الاسلامبولي قاضي دمشق الشام اسبق الشهير في سائر الممالك المحروسه وهو من افاضل رواة الحديث الشريف واجازه بذلك بموجب اجازة منه مورخة في ٢٣ من جمادى الثانيه يوم السبت سنة ١٢٣٤ ومنهم ايضاً شيخ علمآء زمانه وعين فضلاء اوانه العالم العامل المشهور في العلوم الرفيعة الشريف السيد الشيخ محمد ابن الطاهر الحسني الفيلاني المغربي ومنهم ايضاً العالم العامل الفاضل والجهبذ الامام الكامل الشيخ حسين المشيّي التونسي المغربي الشهير ومنهم نخبتي العلماء والمحققين ورئيسي الافاضل والمحدثين السيد الشيخ حامد العطار والسيد الشيخ عبد الرحمن [الكزبري] الدمشقيين ومنهم العلامة الفهامة المحقق المدقق محدث الديار المصريه الزاهد الورع الشيخ محمد ابن العالم العامل الشيخ علي [المسيري] الاسكندري الازهري غفر الله لهم ذنوبهم اجمعين واسكنهم اعلا غرف الفردوس ونفعنا بهم وبعلومهم امين

وقد اخذ الطريقة القادرية عن المرحوم الجامع بين الشريعة والحقيقة قطب زمانه وفريد عصره وأوانه مربي الطالبين المرحوم والمغفور له السيد الشيخ ابي الحسن علي افندي ابن الشيخ عمر افندي الكيلاني شيخ السجادة القادرية في البلاد الاسلاميه عموما وتخلف عليه بها بموجب اجازة منه له بذلك والبسه الخرقة القادرية وله مشايخ غير [ما] ذكر وله رحمه الله تعالى فتاواه الشهيره الحاويه لوقايع زمانه وهي جمة ضخمه فيها ما سيل عنه من اقاصي البلاد وله ديوان مطول من الشعر فاق به اهل زمانه .

وكانت وفاته رحمه الله في اليوم الحادي عشر يوم السبت من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٧٤ وقت الغروب ودفن في اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور يوم الاحد بعد صلاة الظهر في جبانة الصطيه الشهيرة في بيروت وله من الاولاد سبعة من الذكور وخمسة من الاناث احياء بعد وفاته رحمة الله تعالى عليه .

ولا يخفى ما في هذا كله من الفائدة التاريخية الجمة اذ انه يظهر لنا مكانة القاضي البيروتي من العلم ، وطريقته في الوصول اليها ، فضلاً عن المناصب

التي شغلها وتاريخ توليه زمامها وتركه اياها . وغني عن البيان ايضاً ما ينتج عن هذه المعلومات من الفوائد الفنية القانونية لاظهار التزوير في بعض الصكوك العقارية البيروتية التي لا يمكن تطبيقها على سجلات رسمية ، ذلك لان سجلات هذه المدينة تبتدئ بصكوك سنة ١٢٧٠ هـ . والقسم الاكبر من الصكوك المزوّرة التي شاهدناها يرجع بالطبع الى ما قبل هذا التاريخ . هذا وقد اوردنا نموذجاً من خط القاضي الغر وخاتمه تسهيلاً لفحص الصكوك المزوّرة وحباً باظهار الحق والحقيقة .



نموذج من خط القاضي الشيخ احمد الغر وخاتمه

ويتضح من الصكوك العديدة الموجودة الآن في البيوت الاسلامية في بيروت ، وفي بعض بيوت النصارى في هذه المدينة وفي الجبل ايضاً ، ان القاضي الغر كان يفصل في جميع الدعاوى الحقوقية الاسلامية ، وفي الدعاوى الحقوقية المختلطة بين المسلمين والنصارى ، وفي المشاكل الحقوقية النصرانية وذلك بين نصارى المدينة بعضهم مع بعض ، وبين نصارى الجبل المجاور .

ففي احدى هذه الوثائق الباقية من عهده حكم شرعي في دعوى زواجية ارثية تتعلق بافراد بيت الشلفون . وفي صك آخر بتاريخ الثالث عشر من جمادى الاولى سنة ١٢٣٧ فصل بين الخصمين « رشيد ابن منصور خنيصر الشويري

المقيم يومئذٍ في قرية الحدد من قرى جبل المدينة المزبورة [بيروت] والياس ابن نصر ابي حرب خنيصر الشويري المقيم يومئذٍ في قرية الشوير من قرى جبـل المدينة المرقومة » . فالخصمان من الجبل ، وكلاهما من النصارى ، والجبل في نظر القاضي « جبل بيروت » .

اما الدعوى فانها هكذا :

« الامر حسبا فيه ذكر عنه الفقير اليه سبحانه وتعالى صدر وثبت مضمونه لـدى السيد احمد الغر نائب مدينة بيروت حالاً عفى عنه » الخاتم « رب سهّل امور احمد » نسختان

الحمد لله تعالى سبب تحريره هو انه بمجلس الشريعة الشريفة المطهرة الغراء بمدينة بيروت المحروسة اجله الله تعالى لدى متوليه خلافه الحاكم الشرعي الحنفي الواضع اسمه بخطه مع ختمه اعلاه لطف به مولاه حضر النصراني الذمي رشدان ابن منصور خنيصر الشويري المقيم يومئذٍ في قرية الحدد من قرى جبل المدينة المزبورة واحضر معه النصراني الذمي الياس بن نصر ابي حرب خنيصر الشويري المقيم يومئذٍ في قريته قرية الشوير من قرى جبل المـدينة المرقومـة وادعى عليه قائلاً في تقرير دعواه عليه ان المدعي باع المـدعى عليه المزبور قبل تاريخـه جميع الجل المعروف بجل ابي المدعي المـغور المشتمل على ارض وغراس اشجار توت الكائن في قريـة الشوير المذكورة يحد الجل المذكور قبلة جل ملـك المدعي المرقوم وشمالاً الطريق السالـك وشرقاً حارة الياس المدعى عليه المسطور وتمامه القطعة الاتي ذكرها التي هي من المبيع المرقوم وغرباً جل ملك البائع المذكور و[عين] المبيع المذكور بعقده وصفقته جميع القطعـة المفروزة من الجل المعروف بجل المدعي المرقوم من جهة شماله يحد القطعة المذكورة قبلة قـيمتها من الجل المذكور ملك المدعي المحرر وشمالا حارة الياس المدعى عليه المذكور المرقومه وشرقا ملـك الياس المرقوم وغربا الجل المذكور الذي هو منه المبيع المزبور وان الجلّ المبيع المحرر طوله من جهة القبلة المشرقة الى جهة الشمال تسعـة وعشرون ذراعاً بالـذراع الاسلامبولي المعلوم المتعارف وعرضـه من جهة الشرق الى جهة الغرب ستة اذرع الا نصف ثلث الـذراع بالذراع المرقوم وان طول القطعة المحررة من جهة الشرق الى جهة الغرب ستة اذرع بالذراع المذكور وعرضها من جهة القبلة المشرقة الى جهة الشمال خمسة اذرع الا ربع ذراع بـالذراع المـغور البيع البات القاطع الماضي بخمسة وستين قرشاً ٦٥ وانه قبض منه الثمن المحرر بالتمام والكمال وان المدعى عليه المزبور اغتصب قطعة من ارض المدعي المزبور هي قـيمة القطعـة المبيعة المزبورة وان طول القطعة المنتصبة المرقومة من جهة الشرق الى جهة الغرب ستة اذرع بالذراع المرقوم وعرضها من جهـة القبلة المشرقة الى جهة الشمال ثلاثـة اذرع الا ربع ذراع بالذراع المزبور وان المدعى عليه المـغور ادخل القطعة الارض المنتصبة المرقومة الى حارتـه المذكورة وبنى فيها حائطاً وان المدعي المرقوم يريد الان رفع يـد المدعى عليه عن القطعـة الارض المنتصبة المدعى بها المذكورة ورفع الحايط منها ونقضه واخراجها منهـا كما كانت اولاً .

فسئل المدعى عليه المزبور سؤاله عن ذلك فاجاب مقرًا بانه اشترى من المدعي المرقوم جميع الجل والقطعة المزبورين بالثمن المذكور وان القطعة المذكورة طولها من جهة القبلة المشرفة الى جهة الشمال سبعة اذرع ونصف ذراع بالذراع المرقوم وعرضها من جهة الشرق الى جهة الغرب ستة اذرع بالذراع المذكور وانه لم يتصب من ارض المدعي المرقوم شيئًا فسئل المدعي المرقوم سؤاله عن ذلك فاجاب منكرًا ان يكون طول القطعة المبيعة المحررة او عرضها القدر الذي ادعاه المدعى عليه الباس المحرر وكلفه على ذلك البينة الشرعية فاحضر المدعى عليه المذكور للشهادة وادائها كلا من النصرانيين الذميين فضول بن جرجس الحداد من قرية بيت شباب وموسى بن نقولا ساحا الشويري فشهدا غب الاستشهاد الشرعي في وجه المدعي المزبور ان المدعي المرقوم باع المدعى عليه المخرر جميع الجل والقطعة المزبورين وذكرا حدود كل من الجل والقطعة المرقومين المذكوران وان طول القطعة المذكورة من جهة القبلة المشرفة الى جهة الشمال سبعة اذرع ونصف الذراع بالذراع المرقوم وان عرضها من جهة الشرق الى جهة الغرب ستة اذرع بالذراع المحرر طبق دعوى المدعى عليه المفور شهادة صريحة وقد زكّي على فضول المرقوم احد الشاهدين المذكورين كل من الشقيقين السيد احمد والسيد محمد ابني المرحوم السيد بكري الطياره فنب ذلك اقر المدعي المحرر ان القطعة التي هي من المبيع المرقوم المحررة طولها قبلة وشمالًا سبعة اذرع ونصف ذراع بالذراع المذكور وعرضها شرقًا وغربًا ستة اذرع بالذراع المحرر كذلك طبق دعوى المدعى عليه المزبور وصادق على ذلك كل المصادقة الشرعية وان المدعى عليه المزبور لم يتصب من ارضه شيئًا بطواعية ورضى واختيار من غير اكراه ولا اجبار فحكم الحاكم الشرعي المومى اليه على المدعي المرقوم بالاقرار المزبور حكمًا شرعيًا مستوفيًا شرائطه الشرعية اوقعه في وجهه ايقاعًا شرعيًا بمخاطبة شرعية وجاها وشفاها بعد اعتبار ما وجب اعتباره شرعًا فاقر كل من المدعي والمدعى عليه المزبورين وهما في غاية الصحة والسلامة في العقل والبدن انه لم يبق كل منهما يستحق ولا يستوجب قبل الاخر ولا عنده ولا عليه ولا في ذمته حقًا من الحقوق الشرعية لا دينًا ولا عينًا ولا ذهبًا ولا فضة ولا دراهم ولا دنانير ولا نقودا ولا فلوسًا ولا امانة ولا وديعة ولا عارية ولا شركة ولا مشتركًا ولا ربحا ولا خسرانا ولا رهنا ولا مرهونا به ولا غلة ولا استغلالًا ولا اجارة ولا مستأجرا ولا اجرة ولا دعوى ولا طلب بوجه ولا سبب حق ولا اليمين الشرعي وان وجب على الخصوص والعموم والجملة والتفصيل فيما مضى الى حد تاريخه وابراء كل منهما ذمة الاخر الابراء العام المسقط لكل حق ودعوى وطلب وتصادقا على ذلك كله التصادق الشرعي بطواعية ورضى واختيار من غير اكراه ولا اجبار وثبت اقرار كل منهما للآخر بما ذكر ومصدقة الاخر له على ذلك كله لدى الحاكم الشرعي المومى اليه ثبوتًا شرعيًا وحكم على كل منهما بما اقرّ به للاخر حكمًا شرعيًا مستوفيًا شرائطه الشرعية اوقعه في وجه كل منهما ايقاعًا شرعيا بمخاطبة شرعية وجاها وشفاها بعد اعتبار ما وجب اعتباره شرعًا والتمس منه هذا الصك الشرعي نسختين ليكون بيد كل واحد منهما نسخة منها مشعرة بذلك فسطر ما هو الواقع فيه كذلك غب الطلب والسؤال تحريرًا في ١٣ الثالث

عشر من جمادي الاولى سنة ١٢٣٧ سبع وثلاثين ومائتين والف

شهـود الحـال

السيد قاسم عز الدين | السيد ذيب صبره | السيد محمد بن الحاج صالح العريس | السيد الحاج علي ابن السيد موسى القبسى

السيد محمد ابن السيد علي أغا المكوك | علي بن يوسف الناطور

حسن بن عساف الراعي المحضر | الشيخ محمد بن ابراهيم خرم الشوا

فبناء على ما تقدم نرانا مضطرين ان نكمل كلام الاستاذ القاضي فنذكر محكمة بيروت الشرعية، ونشير الى صلاحيتها في الدعاوى اللبنانية. وما نقوله عن هـذه المحكمة يصح ايضاً عن محكمتي طرابلس وصيدا، وذلك بدليل السجلات الشرعية التي لا تزال محفوظة حتى الساعة هذه.

ومـا هو جديرٌ بالذكر بهذه المناسبة، وبمناسبة ما ورد في مقال الاستاذ القاضي عن علاقة البطريرك الماروني بالقضاء.[1] ان المثلث الرحمات البطريرك يوسف حبيش طلب الى الدولة العثمانية سنة ١٨٤٠ ان « تخوّله الحق » في تعيين قضاة لشعبه. فلو كان ذلك بتمامه من حقه فلماذا طلبه البطريرك ؟

ونرانا مضطرين ايضاً ان نتوسع فيما ورد من كلامه في الصفحة ٨٧ من المجلد نفسه من مجلة المشرق حيث يقول « ان صلاحية القاضي الدرزي في لبنان الجنوبي كانت تتناول الطوائف غير المسيحية وانه كان يحق للمسيحيين ايضاً ان يتقاضوا لديه اذا ارادوا » . فنذهب الى ابعد من هذا ونزيد ان المسيحيين في لبنـان الشمالي والمتوسط والجنوبي كانوا يترافعون مرات غير قليـلة امـام المحكمة الدرزية في بعقلين او غيرها من قرى الشوف ذلك اني لا ازال احفظ امراً من الشيخ احمد تقي الدين القـاضي في بعقلين يعين بموجبـه جدي الاكبر، رستم مجاعص الشويري، حكماً في احدى الدعاوي بدير القمر واليك نص هذا التعيين

---

١) المشرق (٣١ [١٩٣٣] ٨٦)

بالحرف :

اعلام شرعي

من خصوص الاختلاف الحاصل فيما بين خليل الحنود وابن عمه طنوس لجهة عمار حادثه طنوس وخليل يدعى حصول الضرر وطنوس ينكر ذلك فحيث يلزم المناظره من اصحاب الخبره المشهود بهم حسن المعرفه والذمه يقتضى انه يناظر ذلك المحل المعلم رستم المعمارى المشهور وكيفما يتقرر بموجب ذمته ومعرفته يكون المشا بموجبه والامر لولي الامر ايده الله تعالى بالنصر وحرر في ١٥ شهر جمادى الاخر سنة ١٢٥٤

الخاتم عبده

احمد تقي الدين

وفي سجل هذا القاضي المشهور ، الذي لا يزال محفوظاً لدى حفيده القاضي احمد افندي تقي الدين ، عدد كافٍ من الصكوك الشرعية التي تدلّ على اتساع صلاحيته في جميع انحاء لبنان.

ولا بدّ من الاشارة بهذه المناسبة الى مجموعة المرحوم سليمان بك عز الدين القضائية التي تتناول تاريخ لبنان القضائي منذ الفتح العثماني. وهي ، على ما نعلم ، اكمل المعروف من نوعها . وحبذا لو ان القضاء اللبناني يسعى بنشرها تعميماً لفائدتها وحرصاً عليها من الضياع.

هذا ولا يخفى ما احدثته الحكومة المصرية من التغييرات القضائية في لبنان من حيث انشاء مجالس المشورة ، ومجالس التجارة ، ومن حيث المرافعة في دمشق وعكا ، والاستئناف الى الاسكندرية . وقد اشرنا الى بعض هذه التغييرات في مقدمة الاصول العربية لتاريخ هذه البلاد في عهد الحكومة المصرية ، ونشرنا قسماً من الوثائق التي تتعلق بهذه المواضيع في المجلدات الاول والثاني والخامس . ونأسف لان المقام يضيق عن ذكرها هنا فلتراجع في محلها .

شهداء نجران

رسالة شمعون اسقف «بيت أرشم»

في الاضطهاد الذي حلّ بالنصارى الحميريّين سنة ٥٢٤ للمسيح

عرّبها عن الاصل السرياني

القس يوحنا عزّو كاتم أسرار البطريركية الانطاكية

٣

(تتمة)

على اثر تلاوة رسالة ملك الحميريّين ، احتدم الملك المنذر غضباً ودعا جميع وجهاء نصارى مملكته وصاح بهم ناعياً وناقماً : «ها قد رأيتم وسمعتم ، ايها النصارى ، ما حلّ بشعبكم . فكم من مرّة قلت لكم ان : تخلّوا عن المسيح . فابيتم ، ولم تسمعوا . فدعوا الآن عبادته بعد سماعكم ما ألمّ بالذين لم يكفروا به كيف قتلهم ملك الحميريّين وأبادهم واحرق بيعتهم . ألا انظروا كيف طُرد المسيح من بلاد الحميريّين والفرس والرومانيّين ، وانتم لا تذعنون لي وتتخلّون عنه . لست انا خيراً من هؤلاء الملوك الذين نفوا واجلوا النصارى من بلادهم وافنوهم قتلاً . »

ولما فاه الملك المنذر بهذا الكلام امام وجهاء نصارى مملكته استفزّت الحميّة الدينيّة احدهم ، ولم يتماسك عن الجواب ، فانتصب وقال للملك ببسالة : «لا يليق بك ايها الملك ان تتفوّه بمثل هذا المقال . لاننا لم نصر نصارى في عهدك حتى تبذل لنا النصح بالتخلي عن المسيح ، وتشير علينا بنكران نصرانيتنا . لكننا نصارى من عهد آبائنا واجدادنا . » فشاظ الغضب بالملك لدى هذا الجواب ، وانتهره قائلاً : «أأنت تتجاسر على الكلام بحضرتي ؟» فاجاب الوجيه المؤمن : «اني اتكلّم من اجل دين الله ، ولا تأخذني في احد بسببه هوادة ولا يثبّطني خوف . وليس في وسع ايٍّ كان ان يصدّفني عن الكلام . فحسامي ليس بأقصر من حسام غيري في سبيل دين الله فلأمتشقنه وانازل القتال حتى الموت ولا افزع » .

فلما رأى الملك شجاعته وما نطق به دون وجل تجـاهه ، اضرب عن الكلام واجماً من اجل عترته وسمته ، لانه كان حسيباً واحد كبراء الحيرة .

هذا وان الملك النصراني المتوفّى الذي كان الحبش ولّوه على بلاد الحميريين كان قد ارسل الى الملك المنذر وفداً من امناء الحميريين ، يتقـدّمهم رسول نصراني . وتوفي اثناء وجود هذا الوفد في الحيرة . ولما نعي اليهم لبثوا فيها . فبلغهم على الاثر ما يَنزل الملك اليهودي الجديد من مرّ التنكال في النصارى . فاستأجروا رجلاً من الحيرة ، وارسلوه الى نجران ليستطلع طلع الاحوال فيهـا ويقف عن كثب على الحقيقة ويأتي اليهم بالانباء الصادقة . ونحن كنّا قد قدمنا من حيرة النعمان الى مخيّم المنـذر يوم الاثنين من الاسبوع الاوّل من الصوم الكبير ، فقصّ على مسمع منا هذا الرسول العائد يومئذ من نجران ما لا تحتويه رسالة الملك اليهوديّ . وروى لنا كيف ان الملك عاهد النجرانيين بيمين مغلّظة ، وحنث فيها على اثر فتحهم ابواب المدينة وتسليمها اليه ، وكيف غصبهم ذهبهم وفضّتهم ، وأحرق عظام اسقفهم ، واعمل النار في البيعة ومن وجد فيها من الرهبان والشعب الى ان قال :

«فامر ان يحضر امامه جميع الوجهاء . فمثلوا بين يديه ، وكانوا يعدّون ٣٤٠ رجلاً . وطفق يتوعّد زعيمهم الحبيب « الحارث بن كعب » بقوله : « لايّ داعٍ رمت ان تعصيني وتخرج عليّ واثقاً بذاك الناوي الساحر (يريـد به المسيح) وظننت انك تفلت من يديّ ! اني اصفح عنك ان شفقت الآن على شيبتك ، وكفرت بذاك المضلّ وبصليبه ، واستحييك ان اصخت اليّ . والّا فتموت شرّ ميتة ، انت ، ورفقاؤك ، وسائر من لا يكفر بالمسيح والصليب . » فاجابه الشيخ الجليل :

« بالحقيقة يجب عليّ ان انحى باللوائم على جميع هؤلاء النصارى رفاقي الذين كانوا معي في المدينة ، لاني نصحت لهم فلم يعيروني أذناً صاغية . فقد كنت متأهباً لاناجزك القتال وانازلك العراك من اجل المسيح ، فاما كنت تقتلني او اقتلك ، على اني كنت واثقاً بالمسيح ربي ان احوز النصرة عليـك . لكن لم يدعني رفاقي ان اصنع ذلك . فطلبت ان اقتاد عشيرتي وعبيدي فقط واخرج الى

مبارزتك ومحاربتك ، فأوصد النصارى في وجهي ابواب المدينة ولم يفسحوا لي مجالًا للخروج اليك . فحذّرتهم ان يحتفظوا بالمدينة ولا يفتحوا لك الابواب ، وكنت واثقاً بالمسيح ربّي انك غير قادر على تدويخ مدينتنا لانها حصينة لا يعوزها شيء . وبهذا ايضاً لم يعرني رفاقي سمعهم . ولما بعثت اليهم بالميثاق الغليظ أشرت عليهم ألّا يصدّقوك ، وقلت لهم: انك رجل فلّ من الخير دجّال، ولا عهد لك بالصدق والامانة . وفي هذا ايضاً لم يصخ اليّ رفاقي . والآن فلا عجب ان اقترحت عليَّ الكفران بالمسيح الهي والتهوّد على شاكلتك ، وانا بالغ ميداء الحياة لربّما لا اعيش بعد كفراني به يوماً واحداً او ساعة واحدة ، فتريد ان تحرمني المسيح ربّي وتغرّبني عنه في شيخوختي . وأيم الحقّ انك لا تتكلم مثل ملك ، ولا تصنع نظير ملك ، والملك الكاذب ليس بملك . اننا قد شهدنا ملوكاً كثيرين ، ولكنا لم نشهد ملوكاً كاذبين . ها انا مالك امري فلا اكذبن في ملكي هذا لدى المسيح . بل حاشاي ان اكفر بالمسيح الاله الذي به آمنت من فتوّتي ، وباسمه اعتمدت ، ولصليبه أسجد ، وعنه اموت . والطوبى لي حقّاً لانه أهّلني لان اموت عنه في شيخوختي . الآن عرفت ان المسيح يحبّني لاني بنعمته عشت كثيراً في هذا العالم ، وزجّيت ايامي بالرخاء والهناء ، ولم افتقر الى شيء قط . وقد اكثر لي المسيح ربّي البنين والحفداء وشرف الاحساب ، وقد حزت الغلبة بحوله في حروب عديدة ، وفي هذه الملحمة الاخيرة ايضاً سيفلجني عليك المسيح ربي بقوة صليبه . واني لواثق بأنّ ذكري من هذه المدينة ومن قبيلتي لا يزول . الآن تيقّنت اني لا اموت الى الابد ، لاني عالم ومتأكد ان الكرم اذا ما تشذّب تكثر اغصانه ويهب ثماراً غزيرة . وهكذا شعبنا نحن معاشر النصارى في هذه المدينة سينمو ويزداد بعد هذه الملحمة . فلا تتبجحن انك اتيت شيئاً . فاني اقول لك انّ هذه المدينة ستحفل بالنصرانية ، وهذه البيعة التي اعلت فيها النيران ستشاد وتملك وتأمر الملوك فينقادون اليها صاغرين ، ويستولي الدين النصراني ويمحق المذهب اليهودي ، ويزول ملكك ويضمحل سلطانك .»

«ولما قال هذا الشيخ الجليل الفاضل التفت وراءه ، وهتف بالمؤمنين المحاطين

به قائلًا :« اما سمعتم يا اخوتي ما قلت لهذا اليهوديّ ؟» فصاحوا كلهم قائلين: « سمعنا كلّ ما قلت ، يا ابانا .» فاردف :« اصحيحة هــذه الاقوال ام لا ؟» فاجابوا :« صحيحة وصوابية .» فصاح بهم :« ان وجد بينكم من يهاب السيف ويكفر بالمسيح فلينفصل عنا .» فاجابوا :« حاشانا ! حاشانا ! ان نكفر بالمسيح ! تقوّ ، يا ابانا ، تشجّع ولا يحزننك ذلك ! فكلّنا نظيرك ، ومعك نموت عن المسيح، ولا يلبثنّ منّا احد في الحياة من بعدك .» فنادى الشيخ :« اليّ سمعكم ، يا جميع النصارى والوثنيين واليهود ، ان كفر احد بالمسيح من امرأتي او بنيّ او بناتي او عترتي او قبيلتي وتخلّف حيًّا مع هذا اليهودي الجاحد ، فلا يكون من عترتي ولا من قبيلتي . وليس له معي حصة او شركة في شيء . ويعود كل ما تملكه يميني الى البيعة المزمعة ان تُشاد في هذه المــدينة من بعدنا . لكن ان تخلّفت امرأتي في الحياة او احد بنيّ او بناتي لأيّة علّة كانت دون الكفران بالمسيح ، فيكون كل شيء له وحينئــذ تختار البيعة ملكاً لها ايّة ثلث قرى شاءت من ملكي .»

«ولما فاه الشيخ بهذه الاقوال تجاه الشعب باسره ، التفت الى الملك وقال له: « ها قد سمعت هذا كلّه ، فلا من حاجة الى العودة علينا بالكلام. فحاشانا ان نكفر بالمسيح الهنا . ولا مانع من قبلنا يثبّطنا عن الموت من اجــل المسيح . فدونك ما تشاء . فهــذه فرصة نحيا بهــا الى الابد . اننا نكفر بكل من يكفر بالمسيح . نكفر بكل من لا يعترف بالمسيح الهًا وابن الاله . نكفر بكل من يوافقك ويواطئ اليهود انداذك . ها اننا ماثلون امامك ، فاصنع كلما في وسعك صنعه . والحقّ اقول لك اني في المتّكآت كنت اتقدم رفاقي بشرب الكأس الاولى ، والآن ايضاً اتقدمهم بكأس الموت هذه عن المسيح . ها اني أَسِمُ نفسي ورفاقي جميعاً كعادتنــا بعلامة الصليب الحي واقول :« باسم الآب والابن والروح القدس » ، فصاح الجمع كله قائــلًا : « آمين آمين » ، ووسموا نفوسهم بعلامة الصليب صارخين معاً :« نكفر بكل من يكفر بالمسيح . تشجّع ، يا ابانا ، تقوّ ! ها ان ابراهيم رئيس الآباء سنك ينتظرك . نكفر بكل من يكفر بالمسيح ويلبث حيًّا من بعدك .» . فلما رأى الطاغية ان لا وسيلة

ليكفروا بالمسيح امر بأدنائهم من الوادي ، وقطع رؤوسهم وطرح جثثهم فيه .
ولمّا انصبّت اقدامهم في الوادي ، قام جميعهم قُرانى ، ورفعوا ايديهم الى السماء
وقالوا : « هلمّ ايها المسيح الهنا الى عوننا . قوّنا ، يا ربنا . اقبل نفوسنا ، يا
يسوع . الا ليلذّك دم عبيدك المهراق من اجل اسمك ، ايها المسيح ، الهنا !
وأهلنا لمشاهدتك . ها اننا نعترف بك ، يا يسوع ، مثلما علّمتنا ، فاعترفنّ بنا
مثلما وعدتنا . ايها المسيح الهنا ابنينّ البيعة هذه التي احرقها اليوم هذا اليهودي ،
وأقم لها اسقفاً ، يا يسوع ، عوض عبدك القديس بولس الذي امتهن عظامه
واوقدها في النار هذا الكافر . » وبعد ان انتهوا من ابتهالهم هذا صرخوا
جميعاً بصوت واحد : « حيّهل الى مبادلة السلام ! » فتبادلوا جميعاً السلام . وعلى
اثر ذلك بسط الشيخ اليهم يده منادياً بهم : « ليكن معنا سلام المسيح الذي
منحه اللصّ على الصليب يا اخوتنا . » فبادر عندئذ الرجال البسلاء رفاقه واخذوا
يسندونه ويدنون به من القتل كرئيس المتّكأ فارحين وقائلين : « اقبلنّ ابانا ،
وايّانا معه ، ايها المسيح ، لاننا من اجلك نقتل » . فجثا الشيخ على ركبتيه ،
ورفاقه يمسكونه مسندين يديه شبه يدي موسى النبي على رأس الجبل . فحزّ
رأسه . وللحال بادر رفاقه واختطفوا دمه دالكين به وجوههم واجسامهم
كحنان[1] الشهداء . واخذ كل واحد منهم يسابق رفيقه الى حيث كان يرى
السيف مستلّاً ، ويجثو على ركبتيه منحنياً ، فيقع صبيب السيف في عنقه حتى نال
جميعهم . وكان اسم زعيمهم الشيخ الجليل « الحارث بن كعب » .

واليكم ايضاً خبراً آخر ، يا احبّاءنا ، رواه لنا ايضاً الرجل العائد من نجران
ذاته قال :

« شاهدت فتى ابن ثلث سنوات قبضت عليه امه ، وخرجت مسرعة
لتقتل . فلما رأى الفتى الملك جالساً ومتردّياً بزّة الملك ، ترك والدته وبادر الى
تقبيل ركبتيه . فامسكه الملك وعلق يتحبب اليه قائلاً : « ماذا تبتغي ؟ اتذهب

---

(١) الحنان كلمة سريانية يراد بها تراب المحلّ الذي يتكلّل فيه الشهداء او تراب قبورهم .

مع امك فتموت ، ام تبقى عندي فتحيا ؟ . » أجاب الفتى: « رحماك ، سيّدي ، رحماك ! أبتغينّ الذهاب مع امي لاموت ، ولذا خرجت معها ، وقد قالت لي : حيّهل ، يا بنيّ ، نذهب نموت عن المسيح . الا دعني لانطلق فادركها لئلا تموت ولا اراها . وقد روت لي ان ملك اليهود امر ان يقتل كل من لا يكفر بالمسيح . كلّا كلّا ، يا سيّدي ، لا اكفرنّ بالمسيح ابدًا واستحبنّ الموت الاحمر على الكفران به . » قال له الملك : « من اين تعرف المسيح ؟ » اجابه الفتى : « يا سيّدي ، كل يوم اراه مع امي في البيعة . وان جئتَ الى البيعة اريتُك اياه . » قال له الملك : « اتحبني ام تحبّ امك ؟ . » قال له الفتى : « اني احبّ امي اكثر منك . » فاردف الملك : « اتحبني ام تحبّ المسيح ؟ ». اجابه الفتى: « احبّ المسيح اكثر منك ، يا سيّدي ، وهو احسن منك .» قال الملك : « فلمَ اذًا اقبلت ولثمت ركبتيّ ؟ » اجاب الفتى : « ظننتك الملك النصراني الذي شاهدته في البيعة . فلو تبادر اليّ انك يهودي ، لما اقتربت منك ، يا سيّدي .» قال له الملك : « انا اعطيك جوزًا ولوزًا وتينًا وكلّ ما ترغب.» اجابه الفتى : « لا ، وحقّ المسيح ، لا آكلن جوز اليهود ، ولا امي تأكله ايضاً . » قال الملك « ولِمَ لا تأكله ؟ » . اجاب الفتى : « لانه نجس . الا دعني انطلق الى امي لئلا تموت وتتركني وحدي». قال الملك: « البثْ عندي ، وكن لي ابناً .» قال الفتى: «لا ، وحقّ المسيح ، لا البثُ عندك ، لانّ رائحتك منتنة ورائحة امي ذكيّة خير من رائحتك . » فتوغّر صدر الملك غيظاً وقال للماثلين امامه : « انظروا الجرثومة الشريرة ! كيف ينطق منذ ترعرعه . انظروا كيف استطاع ذاك المضلّ الساحر (اي المسيح) ان يطغي الولدان والرضعان ايضاً . » فابتدر احد عظماء الملك وقال للفتى : « هيّا ! هيّا معي فآخذك الى الملكة لتصير لك امًّا .» اجابه الفتى: « تبًّا لك ! وقبحاً لفعلك ، يا رجل ، ان امي خيرٌ لي من الملكة. فهي تذهب بي الى البيعة. ألا دعني اذهب ، لانها قد ذهبت وتركتني وحدي.» ولما سئم الفتى من كثرة الملاجات ، ورأى انّ الملك لا يدعه ان يلتحق بامه ، عضّه في فخذه هاتفاً به : « دعني انطلق الى امي. دعني ، ها هي تموت ، وادوم ان اموت معها . » فحمل الملك الفتى ، محرّقاً عليه الارّم ، ودفعه الى احد كبرائه

موعزًا اليه ان يحترس به الى ان يكبر. فان كفر بالمسيح يعش، والا فيموت. فتناوله ذاك منه ودفعه الى احد عبيده ليحتفظ به، والفتى يولول نائحًا، ويخبط رجليه، ويستصرخ امه داعيًا اياها وقائلًا: «يا امي، يا امي، ها ان اليهود يأخذونني. تعالي خذيني لاذهب معك الى البيعة.» وكانت امه ترنو اليه فاجابته: «اذهب، يا بنيّ، فقد اودعتك المسيح. لا تبكينّ يا حشاشة كبدي. ها اني آتية اليك. اذهب واستمرنّ في البيعة عند المسيح، حتى أجيءَ وآخذك. لا تولولنّ يا حبيبي. فالمسيح ثمّ في البيعة امكثنّ عنده. ابقَ عنده، يا بنيّ، اني آتية وراءك.» ولما فاهت بهذا حزّوا رأسها[1].»

اليكم خبرًا آخر، ايها المؤمنون الاعزاء، رواه لنا ايضًا الرسول نفسه الجائي من نجران قال:

اني رأيت صغرى بنات تلك الطوباوية الحسية، واسمها «دوما»، وعمرها تسع سنوات، لما سمعت الملك اليهودي يقول لامها ان: «ابصقي على الصليب، واكفري بالمسيح» ملأت فمها بصاقًا ورمت به وجه الملك قائلة: «ليبصق في وجهك، يا مَن تتجرأ وتقول للشريفة امي، دون خزي، ان تبصق على الصليب الحيّ وتكفر بالمسيح وبالصليب نظيرك. لعمري! أنّ المسيح ليعرف ان امي أحسن من امك، وعترتي اشرف من عترتك، وتجسر مع ذلك ان تقول لامي ان تكفر بالمسيح وتبصق على الصليب! ليستدّ فمك ايها اليهودي قاتل ربّه!» فذُبحت الصغيرة وامها واخواتها للحال، مثلما سبق القول، وكان اسم الامّ الحسية التالية «دوما ابنة ازمني»، وفي رواية

---

١) روى العلّامة السماني في مكتبته الشرقية (١ : ٣٨٠) عن هذا الفتى قال: «نقل البطريرك ديونوسيوس عن تاريخ يوحنا اسقف آسية ما يلي: لما قتل الحبشة ذلك الملك اليهودي وباد جميع يهود حمير لبث في الحياة هذا الفتى وكبر واذ ألمّ الملك النصراني بما جرى له اخذه عنده ونظمه في حاشيته واحاطه بكرامة مثل كشهيد المسيح ورأسه على بلاطه وغدا محبه ومستشاره وكان اسمه «بُحصر». واخذ اخيرًا يوفده برسائل على الملك يوستينيان وحظينا بمحادثته ردحًا من الزمان منذهلين من ارادته الصالحة ووداعته وتواضعه فكان يطوف كنائس العاصمة مصليًا ويتصدّق صائمًا دائمًا حتى المساء طول الايام.»

اخرى « رومي » .

***

فلما تليت الرسالة ، وروى الرسول ما جاء به من الاخبار ، امام الملك وجلسائه ، تولت الكآبة النصارى طرًّا . وبادرنا من فورنا الى كتابة هذه الرسالة ، باعثين بها الى حبكم ، ومبتهلين اليكم ان تسعوا حثيثاً وسريعاً بلا ابطاء . ولا تتغافل ليطّلع عليها الاساقفة الاطهار-القدّيسون الماديون الى مصر مع المسيح ، لكيا بواسطتهم يلمّ بهذه الامور كلها رئيس اساقفة الاسكندرية . فيحضونه على الكتابة الى ملك الحبشة كيلا يغفل عن تفقّد الحميريين ، بل يتلافى حالتهم بما يمكن من الخفّة والاسراع . وليطّلع على هذه الشؤون كلّها ايضاً مدن المؤمنين كلها اعني انطاكية ، وطرسوس قيليقية ، وقيصرية قفدوقية ، والرها ، وبقيّة مدن المؤمنين ، فيقيموا ذكرًا للشهداء والشهيدات الآنفي الذكر ، ويصلّوا على امن وسلام البيعة المقدّسة والمملكة . وليحط علماً الاساقفة طرًّا بجميع الاسواء والبلايا التي يصبّها اليهود على الشعب النصراني الموجود في بلاد الحميريين ، وما يعانيه منهم من تباريح الجوى وهجم الكنائس وهدم محال الشهداء الرومانيين .

اما اساقفة المدن الرومانية كلها الاوّلون والآخرون فيؤجّرون لليهود بيوت الكنائس ومحلّات عظام الشهداء . فيهدمونها تحت الصليب ، طمعاً في نيلهم قيراطاً من المال ينتفعون به . وان اليهود الكائنين في طبرية يرسلون سنة فسنة ووقتاً فآخر كهنة منهم الى هناك لاثارة الشجس بين نصارى الحميريين . فلو كان الاساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودّون ان تستقيم النصرانية ، لرغبوا الى الملك وعظمائه ليرلوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقيّة المدن ويلقوهم في السجن . ولا نقول هذا لتجازى سيئة بسيئة بل ليتوثّقوا منهم بكفلاء . حتى لا يعودوا يرسلون رسائل واشخاصاً وجيهين الى ملك الحميريين فيصبّ صاعقة الارزاء على شعب المسيح في حمير ، مثلما كل ما تقدّم لنا ذكره من ضروب الشرور والاسواء ، ويهدّدونهم بحرق مجامعهم وكنيسهم ان لم يقوموا بهذا الامر ، بل يتوعّدونهم بالطرد من تحت الصليب واستيلاء النصارى

عليهم حتى اذا بلغ ذلك مسمع ملك الحميريين تأخذه الشفقة على رفاقه اليهود، فيكفّ عن اضطهاد النصارى.

بيد اني لعارف ان ذهبَ اليهود من شأنه ان يسعى لمواراة الحقّ فيتوافر التبجّح لليهود والوثنيّين . فلولا تمكن محبة الذهب والفضة من ابناء البيعة وبرودة حبّ الرعاة لما حُرمت الرعايا من رعاة يحزنون لبؤسهم . فاننا نقول، وهم ما يهمّهم يصنعون ، والمسيح الاله الراعي الصالح الذي بذل نفسه عن خرافه يصنع ما يراه بالقطيان المفتداة بدمه الزكيّ ويعمل على ما يعضد رعيّته البائسة الواثقة بصليبه ، له المجد والكرامة والمديح والسجود الآن وكلّ اوان والى ابد الآبدين.

قال الكاتب :

هذا ما وجدته ، وقد تقصّيت البحث بنفسي ايضاً ، فاطلعني اناس كان يبعث بهم الملك الى تلك الجهات قالوا : ان الحبشة ادركوا ملك اليهود ، فربطوا في عنقه اواني خزفيّة ثقيلة ورموا به من السفينة الى غور البحر . وملك مكانه ملك نصراني اسمه « الفرنا » فشاد البيعة ، ومحلّاً لعظام الشهداء الطوباويّين البسلاء . فليحفظ الكاتب الذليل بصلواتهم من كل سوء . آمين .



ابن عبد ربه و « عقده »

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٩

ما دسّ في العقد بعد صاحبه

لم يسلم العقد مما اصاب كثيرًا من الكتب العربية القديمة من حيث دسّ الاخبار فيها بعد ان يكون قد قضى اصحابها. ذلك ان اصحاب كثير من الكتب الخطية كانوا في بعض الاحيان يضيفون في اواخر كثير من فصولها او ابوابها اخبارًا جديدة تتعلق بالموضوع، او قد لا تتعلق به، وشروحاً لبعض ما في المتون. ثم تمرّ الايام، وينسخ بعض هذه الكتب، فتدخل الزيادة في الاصل، ويثبت الشرح في المتن، ويختلط الامر على المتأخرين فينسب كل ما في النسخة الخطية الى المؤلف.

من هذا ما وقع فيه ناشرو الطبعات التي بين ايدينا لكتاب العقد في مصر، فقد اعتمدوا، فيما يظهر لنا، على نسخة خطية دُسّت فيها جملة كثيرة من الاخبار. فاثبتوا الاصل والزيادة في طبعاتهم، دون ان ينتبهوا الى الامر او يشيروا اليه. والغريب ان بعض هذه الاخبار المدسوسة كانت ظاهرة لا يحتاج امر اكتشافها الى كثير من العناء او التدقيق. فانك اذا قرأت العقد ترى انه قد ترجم فيه في كتاب اليتيمة الثانية[1] لاربعة خلفاء من بني العباس هم الراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع. وكلهم توفي بعد وفاة ابن عبد

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٥٩-٦٠

ربه اي بعد سنة ٣٢٨ هـ. وترى في ترجمة الاخير انه قد خلع نفسه سنة ٣٦٣هـ[1].
اي بعد موت ابن عبد ربه بـ ٣٥ سنة . ولا بـد من الاشارة الى ان اول من سبق فنبّه الى دسّ اخبار هؤلاء الخلفاء المتأخرين هو العلّامة Theodor Nöldeke في كتابه *Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's*، هامش الصفحة ٥٥، وقد ذكر ان هذه الاخبار لم ترد في مخطوطتي العقد في Vienna وفي München.

ولم نكتف في وقوفنا على الدسّ في هذا الباب . بل دفعنا الامر الى مراجعة الباب كلّه والنظر فيه، فاذا هو يستهلّ بعبارة « فرش ذكر خلفاء بني العباس وصفاتهم ووزرائهم وحجابهم.»[2] وهي المرة الوحيدة التي تستعمل فيها كلمة « فرش» في اول باب ما، اذ ان استعمالها في العقد كلّه واقع في اوائل الكتب، لا في اوائل الفصول والابواب . وقد نبه الى ذلك ابن عبد ربه نفسه في المقدمة حيث قال « وقد الفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وانما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب.»[3]
زد على ذلك انه ليس في الباب هذا فرش كما في اوائل الكتب، وانما هو ذكر للفرش ليس الا، حيث نرى ان الباب يبدأ بابي العباس السفاح دون توطئة او تمهيد، او «فرش» كما اصطلح ابن عبد ربه ان يقول.

وبحثنا في فرش اليتيمة الثانية نفسها نطلب ذكر هذا الباب فلم نرَ لذلك اثرًا . وكل ما في الفرش من هذه الناحية هو: «قد مضى قولنا في اخبار الخلفاء وتواريخهم وايامهم وما تصرفت به دولتهم ونحن قائلون بعون الله في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وما سيحوز على شيء من اخبار الدولة اذ كان هؤلاء الذين جرّدنا لهم كتابنا هذا قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الانوف حتى سكنت شواردها ومارسوا الامور وجرّبوا الدهور

١) ابن عبد ربه ٣: ٥٩
٢) ابن عبد ربه ٣: ٥٢
٣) « « ١: ٣

فاحتملوا اعباءها واستفتحوا مغالقها حتى استقرت قواعد الملك وانتظمت قلائد الحكم ونفذت عزائم السلطان . »[١] وظاهرٌ من هذا الفرش ان ابن عبد ربه قد قصر كتابه هذا على اخبار رجال الدولتين الاموية والعباسية دون الخلفاء ، وذكر ما لبعض هؤلاء الرجال من مكانة في الدولة . وليس في الفرش ، كما ترى ، ذكر لخلفاء بني العباس ، بل هناك ما يشير الى ان اخبار الخلفاء قد دُوِّنت في الكتاب الذي سبق - « قد مضى قولنا في اخبار الخلفاء وتواريخهم الخ » - وطلبنا فرش الدرة الثانية في ايام العرب ووقائعها ، وهو الكتاب الذي يلي اليتيمة الثانية ، نبحث عن ذكرٍ لاخبار بني العباس فلم نعثر على شيء . وقد تعوَّد ابن عبد ربه ان يكتب مواضيع كل كتاب سابق في اول الكتاب الذي يليه . وكل ما رأينا هو « قد مضى قولنا في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه الخ »[٢] . وعدنا الى مقدمة العقد نفسه وفيها جدول بكتب العقد وفصولها فلم نرَ في شرحه عن هذا الكتاب سوى « ثم كتاب اليتيمة الثانية في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة »[٣] . وطلبنا معجم البلدان لياقوت حيث ذكر جدولًا لكتب العقد واقسامها الرئيسية فلم نرَ في صدد هذا الكتاب سوى « ثم اليتيمة الثانية في اخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة . »[٤] ولم يقتصر الامر ، في هذا الكتاب ، على هذا الباب فحسب بل ان هناك باباً آخر قد سبقه هو « باب من اخبار الدولة العباسية »[٥] ليس له ذكر كما ترى في كل المواضع التي اشرنا اليها . وهنا نرى انه يحقّ لنا ان لا نرتاح الى ان هذه الاخبار عن بني العباس قد دوّنها ابن عبد ربه ، وان نزعم انها ربما قد دسّت عليه بعد موته ، او ان قسماً منها قد دُسّ ونقل القسم الآخر من موضع آخر حيث انه كان الاولى بابن عبد ربه - ان كان قد ألف هذين البابين - حملًا على ما عرف عنه من حسن التبويب والتصنيف وتبعاً لما اخذ على نفسه في مقدمة عقده حيث قال : « ثم قرنت كل جنس منها

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٦٠
٣) 〃 〃 ١ : ٤
٤) ياقوت ٢ : ٧٠
٥) 〃 〃 ٣ : ٤٧

الى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب »[1]، كان الاولى به ان يضع هذين البابين في الكتاب السابق — كتاب العسجدة الثانية — حيث يبحث في الخلفاء وتواريخهم وايامهم وحيث نرى باباً خاصاً في اخبار الدولة العباسية[2].

ولا نستطيع تعيين البلاد التي دُست فيها اخبار هؤلاء الخلفاء المتأخرين ولا الزمن الذي دُست فيه . انما سنذكر ما يمكن ان يفيدنا من هذه الناحية ففي ترجمة الخليفة الاخير المطيع ذكر لسنة مولده ولسنة مبايعته ولسنة خلعه ، وعند وصول الواضع الى « وتوفي في » نرى بياضاً . وكذلك نرى بياضاً عند « وكان سنه » . فلا يبعد اذن ان يكون وضع هذه الاخبار قد جرى في هذه المدة بين خلع المطيع نفسه وبين سنة موته ، اي بعد سنة ٣٦٣ ﻫ . غير اننا نعود فنرى ان اكثر المصادر للتاريخ العباسي تهمل ذكر سنة وفاة المطيع وتكتفي بذكر سنة خلعه ٣٦٣ ﻫ . فابن الاثير وابن خلدون ومسكويه كل هؤلاء اهمل ذكر سنة موته . فلعلّ من دسّ هذه الاخبار في العقد لم يتوفق في العثور على تاريخ موته فترك بياضاً . ومهما يكن من جهلنا هذا الامر فانا نظن ان الدسّ ، ان لم يكن قد وقع زمن المطيع ، فقد وقع زمن الخليفة الذي عقب المطيع ، لا بعد زمنه . والا فما الذي كان يمنع الواضع من ان يذكر اخبار الخليفة او الخلفاء الذين ولوا امر المسلمين بعد المطيع . يقوّي ظننا في ان الدسّ قد وقع زمن المطيع سكوت الواضع عن ذكر سنة وفاة الخليفة القاهر وعمره ، واكتفاؤه بما يلي « وكانت خلافته سنة وستة اشهر وستة ايام وعاش الى ايام المطيع وكانت سنه»[3] ويترك بياضاً . ويقوّيه ايضاً ما سنذكره من دسّ اخبار اخرى عن هؤلاء الخلفاء العباسيين في موضع آخر من العقد لم يتعدَّ فيها الواضع خلافة المطيع .

امّا هذه الاخبار الاخرى عن خلفاء بني العباس الذين قد تأخر بعضهم عن زمن موت ابن عبد ربه فقد وردت في كتاب التوقيعات والفصول والصدور

١) ابن عبد ربه ١ : ٢
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٥١
٣) « « ٣ : ٥٩

وادوات الكتابة واخبار الكتّاب[١] . ذلك ان ابن عبد ربه ذكر في هذا الكتاب شيئاً في شرف الكتّاب وفضلهم، واورد في هذا الباب اسماء كثير ممن كتبوا للخلفاء، فابتدأ من النبي وذكر من كتب له، ثم ذكر الخلفاء واحدًا واحدًا ومن كتب لهم، حتى انتهى الى المطيع فذكر من وزر له وسكت عنده[٢] . وظاهرٌ ان الذي دسّ هنا قد دسّ هناك، وان الدس قد وقع في زمن واحد، ولعلّه لم يتعدّ الوقت الذي ذكرنا.

ولابن عبد ربه فصل في هذا الكتاب المذكور يدور على توقيعات الخلفاء، فيه بابٌ في توقيعات بني العباس[٣] ليس فيه توقيعٌ لخليفة بعد المأمون. والغريب ان الذي دسّ في المواضع السابقة قد فاته الدسّ هنا . وان وقوف ابن عبد ربه عند المأمون ليحملنا على الظن ان اكثر الاخبار التي وردت في العقد عن خلفاء بني العباس ممن عقّب المأمون دُست على ابن عبد ربه، بعد موته. وليس غريباً ان يصدق هذا الظن لاسيما ونحن نعلم ان ابن عبد ربه قد اخذ اكثر اخباره عن كتب مدوّنة لمؤلفين سبقوه اكثرهم لم يدوّن اخبار من عقبوا المأمون . زد على ذلك ان ابن عبد ربه لم يذكر من توقيعات الامراء المختلفين لاحد بعد طاهر بن الحسين[٤] ، احد قواد المأمون.

ولعلّ القارئ لا يزال يذكر ما قد اشرنا اليه عند بحثنا في امر تجزئة كتب العقد الخمسة والعشرين، من حيث وصف التجزئة في مقدمة العقد وعدم انطباقها على ما هي عليه كتب العقد الآن . فلقد ذكرنا انه ليس في العقد كله سوى ثلاثة كتب قد ذكر فيها اجزاؤها، بينما قد اشار ابن عبد ربه في مقدمة العقد الى انه جزّأ كل كتاب الى جزئين . ونرى انه يجوز لنا ان نظن ان كثيرًا من الزيادات والتغيير قد طرأ على اواخر الاجزاء حتى ضاع ذكرها في اكثر كتب العقد . واظهرنا عندئذٍ ان كتاب الياقوتة في العلم والادب — وهو احد الكتب الثلاثة التي ذكرت فيها التجزئة — قد الحق في نصفه الاول زيادة وجدت في بعض النسخ، ولعلّ هذه الزيادة التي وجدت في بعض النسخ

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠١ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٧
٣) « « ٢ : ٢٢٩ ٤) « « ٢ : ٢٢٣

ولم توجد في البعض الآخر لم تكن مما جمعه ابن عبد ربه في عقده . ولم يتفرد كتاب الياقوتة بالزيادات فاننا نرى في آخر كتاب الواسطة في الخطب زيادة اشار اليها ناشر الكتاب ايضاً في متن العقد نفسه ، قال: «وفي الام زيادة من غير اصلها فاوردتها كهيئتها وهي خطبة لعلي كرّم الله وجهه في هـذه المجنبة تلو خطبة المأمون يوم عيد الفطر جاء رجل الى علي ... » الخ[1] . وفي آخر الخطبة قال الناشر: « تم الالحاق » . ونرى ايضاً في آخر كتاب الطعام والشراب زيادة اشار اليها ناشر الكتاب في متن العقـد ايضاً قال : « وجدت في بعض النسخ زيادة فاوردتها وهي... »[2] ونرى اشارة اخرى الى زيادة رابعة في كتاب الفكاهات والملح ، وهو آخر كتاب في العقد ، عنونها الناشر بـ « زيادة من غير الام »[3] . ولعلّ هناك زيادات اخرى لم يعلمها الناشر فلم يشر اليها كتلك التي ذكرنا في اول هذا الباب والتي تدور على بعض خلفاء بني العباس ، لاسيما وانه لم يطّلع على مختلف النسخ الخطية للعقد في الشرق والغرب .

وهناك امر آخر يدفعنا الى الظنّ في انه قد طرأ على العقد بعض التغيير او التحريف او الزيادة ، هو ان ترتيب كتب العقد في معجم الادباء لياقوت يختلف عما هو عليه في العقد نفسه وفي مقدمته . فالكتاب الاخير في العقد هو اللؤلؤة الثانية في طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ويقول ياقوت « وهو آخر الكتاب »[4] . وهذا التغيير يقتضي تغييراً آخر فقد صارت الزبرجدة الثانية عند ياقوت كتاب التحف والهدايا والنتف والفاكهات (كذا) والملح[5] ، وتقع الثانية والعشرين في جدوله لجواهر العقد ، بينما هي الاخيرة (الـ ٢٥) في العقد نفسه وفي الجدول المذكور في مقدمته . ولا نرى بدّاً من الاشارة الى اختلاف آخر هو ان « الهدايا والنتف » قد ذكرت في جدول ياقوت في الزبرجدة الثانية مع « الفاكهات (كذا) والملح » ، بينما نراها في العقد في آخر كتاب طبائع

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٠
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٦
٣) « « ٣ : ٤٢٢
٤) ياقوت ٢ : ٧٠
٥) ياقوت ٢ : ٧٠

الانسان وسائر الحيوان[1] . وليس في العقد ايضاً ذكرٌ للتحف التي ذكرها ياقوت واشار الى انها واقعة في الزبرجدة الثانية . واورد ياقوت ايضاً في جدوله ان الفريدة الثانية هي في الهيئات والبنايين والطعام والشراب[2] ، بينما نرى ان ابن عبد ربه قد اهمل هذا في مقدمة عقده ، وليس في كتاب الطعام والشراب ذكر للهيئات او البنايين[3] . غير اننا نرى في العقد ، في الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان ، بعض الامور عن البنيان واللباس في بابين مختلفين واحد للبنيان ، وآخر للباس[4] . فاذا كانا ما عناه ياقوت في « الهيئات والبنايين » ، فقد وقعا في غير الموضع الذي ذكره . ويجب ان نذكر ، قبل الفراغ من هذه الكلمة ، ان ياقوت قد درس العقد ، فيما يقول هوعن نفسه ، على استاذ ذكره قال : « وقد اجاز لي رواية كتابه الموسوم بالعقد الحافظ ذو النسبين بين دحية والحسين ابو الخطاب عمر » الخ[5]

وهذا الاضطراب والتشويش ، او بالاحرى هذا الاختلاف بين جدول العقد وجدول ياقوت ، قد ترك آثاراً تدل على ان ايدي المتأخرين قد لعبت في العقد . فان في الكتاب الذي عثرنا في آخره على باب التحف في الاخبار وذكرنا انها تظهر في غير هذا الموضع بجدول ياقوت ، وبعبارة اخرى ان في كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان اموراً لا يمكن ان يكون قد دونها هناك ابن عبد ربه صاحب العقد . فهناك وصف للكعبة فيه ذكر للعلوي الثائر[6] ، واشارة الى انه لما تغلّب على مكة قلع ذهب الحاجب الايمن من باب البيت[7] . وفيه وصف للحجر الاسود يظهر منه ان الواصف شاهد عيان قال : « والحجر الاسود على صخرتين من وجه الارض قد نحت من الصخر مقدار ما ادخل فيه الحجر وأشفت الصخرة الثالثة عليها مثل

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٠ و٢٧٥ ٢) ياقوت ٢ : ٧٠

٣) ″ ″ ″ ٣ : ٢٨٠ ٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٧

٥) ياقوت ٢ : ٦١

٦) نذهب الى انه زعيم القرامطة الذي تغلّب على مكة سنة ٣١٧ هـ ، وسنذكر رأي السيد شفيع في انه غير هذا ونعرض لمناقشته فيه . ٧) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦٢

اصبعين والحجر املس مجزع حالك السواد في قدر الكف المحنية (كذا) قــد لزمن (كذا) جوانبه بمسامير الفضة وفيه صدوع وفي جانب منــه صفيحة فضة حسبتها شظية منه شظيت فجبرت بهــا وصخر الركن الاسود احرش اكبر من صخرنا قليلا.»[1] وهناك اشارة اخرى الى ان الواصف شاهد عيان قال: «وحمام المسجد كثير انيس يكاد الانسان ان يطأه بقدمه لانسه بالنــاس وهو في لون حمام الابرجة عندنا الا انه اقدر منه وليس منها حمــامة تجلس على البيت ولا تطير عليه ولقد هتني ذلك فرايتها حين تكاد ان تحاذي البيت وهي مستعلية في طيرانها ذلك غطست حتى تصير دونه واخذت عن يمينه او يساره وزرقهــا ظاهر بارز على البيوت التي في المسجد الا بيت الله الحرام فانه نقي ليس فيــه ولا عليه اثر.»[2]

وظاهر من هذه النصوص ان الكاتب قد شاهد هذه المواضع بعد تغلّب العلويّ الثائر على مكة واخذه الحجر الاسود، الامر الذي وقع سنة ٣١٧هـ[3]. ونحن نعلم ان القرامطة اصحاب العلوي الثائر هذا احتفظوا بالحجر الاسود حول عشرين سنة[4]. فلم يرجع الحجر قبل سنة ٣٣٧هـ. ونحن نعلم مما تقــدم من درسنا عن ابن عبد ربه انه مات سنة ٣٢٨هـ. فكيف يمكن له ان يكون صاحب هذا الوصف او مشاهد هــذا الامر، ولم يُرجع الحجر الى الكعبة كما ترى ألّا بعد موته بنحو ٩ سنوات؟ ولو فرضنا ان وصف الحجر الاسود كان اثر حجة لابن عبد ربه قبل تغلّب العلوي الثائر على مكة، فانّا نرى في ذكر ابن عبد ربه خبر العلويّ الثائر ووصفه حاجب الباب الذي اقتلع ذهبه ما يناقض ذلك. ولو فرضنا جدلًا ان ابن عبــد ربه قد حجّ بعــد تغلّب العلويّ الثائر فوصف ما شاهده واكتفى بنقل وصف الحجر الاسود عن غيره من اساتــذته الذين حجوا قبله، او عن غيرهم، لرأينا انه يصعب احتمال وقوعه حيث ان ابن عبد ربه كان وقتئذ قد تجاوز السبعين من عمره، ويصعب على مثلــه ان يقوم

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٣٦٣ ٢) ابن عبد ربه ٣: ٣٦٤

٣) Wensinck, *Kaʿba* [The Encyc. of Islam vol. II, p. 586]

٤) ibid.

برحلة الى الشرق لاسيما وقد كان آدر يدرم في مشيه[1] . وقد ذكر الرواة انه اصيب بالفالج قبل موته باعوام[2] . وكان من الطبيعي ان ينقل مثل هذه الاخبار عن اصحاب بعض المصادر التي استند اليها او عن اساتذته الذين حجّوا الى المشرق، لولا ما تقدم ذكره من امر العلويّ الثائر الذي دخل مكة بعد ان قضى كل هؤلاء.

بقي ان نفرض ان العلويّ الثائر هذا هو غير القرمطي المشهور، ونسلّم مع الدكتور شفيع[3] في انه حسين بن الحسن الطالبيّ الذي ذكر الطبري انه دخل مكة وجماعته الذين لم يبلغوا العشرة في الفتنة عام ١٩٩ هـ ، وقد اخلاها اصحاب الامر من بني العبّاس ودعاه اهل مكة اليها[4] . ولكن الطبري لم يذكر ان حسين بن حسن هذا قد اقتلع باب الكعبة او ذهب حاجبه . وقد ذكره ايضاً الازرقي في كتاب اخبار مكة[5] ، ولكنه لم يشر الى انه اقتلع ذهب حاجب الباب . بل انه ذكر ان الذهب الذي كان على الباب كان مما وضع على زمن الامين ، اي قبل ظهور هذا الطالبي ، وان الصفائح هذه كانت قد ضربت مما كان على الباب قبلًا من زمن الوليد بن عبد الملك ومن الدنانير التي ارسلها الامين نفسه ، وان هذا الذهب بقي على الباب الى يوم الازرقي[6] . وقد مات الازرقي ، ومات قبله جدّه الذي خلف له بعض هذه الاخبار ، بعد زمن الامين وبعد عام الفتنة (١٩٩ هـ) الذي اشير اليه . فقد قضى الجدّ سنة ٢١٩ هـ . والحفيد سنة ٢٤٤ هـ .[7] ومن الطبيعي ان لا يكتب الازرقيّان عن الثائر العلويّ القرمطي شيئاً وقد قضيا قبل ان يظهر ، كما وان الطبري لم يصل

---

١) المقّري طبعة اوربة II : ٢٠٠ وهامشها : اما طبعة مصر ٢ : ٨٢٢ فالرواية فيها مشوشة مضطربة . غير انها تشير الى انه كان في مشية ابن عبد ربه اضطراب .

٢) ابن الفرضي ١ : ٣٧ ؛ وابن خلكان ١ : ٤٦

٣) شفيع ٤١٦ وما يليها

٤) الطبري III : ٩٨٢–٩٨٤

٥) طبعة ليبزك سنة ١٨٥٨ ، المجلد الاول : ص ١٢٧

٦) 〃 〃 〃 〃 〃

٧) [The Encyc. of Isl. vol I, p. 542] في المقالة المهملة التوقيع *Al Azraki*

بتاريخه الى ابعد من سنة ٣٠٢ هـ. وقد ذكره ايضاً ابن خلدون في مقدمة تاريخه واشار الى انه يلقب بالافطس ، وروى انه اخذ ما كان في جب مكة من الاموال التي كانت قد خبأت فيه قبل الاسلام[1]. غير انه لم يشر الى ان الافطس هذا اقتلع ذهب باب الكعبة ، بينما نراه قد اشار ، في موضع آخر من تاريخه[2] ، الى ان ابا طاهر القرمطي الثائر قد «هجم على مكة سنة ٣١٧ هـ. وقتل كثيراً من الحاج ومن اهلها ونهب اموالهم جميعاً وقلع باب البيت والميزاب وقسم كسوة البيت في اصحابه واقتلع الحجر الاسود وانصرف به واراد ان يجعل الحج عنده ... وقد كان الحكم المتغلب على الدولة ببغداد ايام المستكفي بذل لهم خمسين الفاً من الذهب على ان يردّوه فابوا وزعموا انهم انما حملوه بأمر امامهم عبيد الله وانما يردّونه بامره وامر خليفته.» ولا نظنّ بعد هذا كله ان ابن عبد ربه يشير الى ان الحسين بن الحسن هو الذي اقتلع الذهب. ومهما يكن من الامر فانا لا نسلّم مع الدكتور شفيع في ان ابن عبد ربه صاحب العقد قد حجّ الى المشرق ، حيث ان المقري قد ذكر في كتابه «نفح الطيب» اسماء طائفة من الرجال المشهورين الذين كانت لهم رحلة الى المشرق. وقد كان ابن عبد ربه صاحب العقد معروفاً عنده استجلب ذكره في كتابه نحو عشر مرات او ازيد ، ونقل ترجمة حياته عن الفتح بن خاقان وذكر كثيراً من شعره ، ونسب اليه رجالاً متأخرين ذكرهم ، ومع كل هذا لم يذكره بين الذين رحلوا الى المشرق ولم يشر الى شيء من هذا الامر[3]. اضف الى هذا ان G. Le Strange في كتابه *Palestine under the Moslems*. London, *1890*. قد رجع الى العقد ونقل عن ابن عبد ربه وصف الحرم في القدس ، فلاحظ ان هذا الوصف يكاد يتفق بالحرف مع وصف معاصر لابن عبد ربه هو ابن الفقيه ،

---

١) ابن خلدون ٣٠٦

٢) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ، ص ٨٩

٣) المقري ١ : ٢٢١–٦٤٠

ولا يختلف عنه الا ببعض التفاصيل[١] بحيث كاد يستنتج انهما استقيا من مصدر واحد[٢]، واشار Le Strange الى انه لا يجزم في ان صاحب العقد قد حجّ وشاهد هذه المواضع[٣].

ولا يفوتنا ان نذكر ايضاً انه ليس في العقد كله – اذا استثنينا هذا الموضع الذي يظهر لنا انه مدسوس – اشارة واحدة الى ان صاحبه قد حجّ الى المشرق او تلميح يفيد انه كان لابن عبد ربه هذا رحلة الى المشرق، وكان من الطبيعي لو كانت له رحلة في شبابه او في كبره ان نرى اثرًا لاخبارها في عقده، كأن يذكر مثلًا بعض الاخبار عن علماء المشرق ممن كنا ننتظر ان يكون قد لاقاهم او اخذ عنهم اثناء رحلته هذه او سمع منهم او تحدّث اليهم، بينما هو لم يهمل ذكر كثير من الاخبار والروايات التي حدّثه بها اساتذته عن علماء المشرق بعد رحلاتهم وحججهم.

زد على هذا ان ابن عبد ربه يقول في مقدمة عقده ان ما له في العقد انما هو تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب، وما سواه فأخوذ من افواه العلماء ومأثور عن الحكماء والادباء.[٤] وهذا اقرار صريح منه، مع ما عرف عنه من النزعة الشخصية، يظهر فيه انه لم يتصدَّ لكتابة مثل هذه الابواب التي تدلّ على ان الواصف شاهد عيان.

ولا بدّ لنا اخيرًا من الاشارة الى اننا لم نرَ تناسباً بين وصف الحرمين وبيت المقدس وبين سائر الابحاث في اول فصل تفاضل البلدان من حيث الامور التي تشير الى نفس كاتب واحد او اختيارات رجل واحد، بل ان هناك انتقالًا فجائيًا من تنفير من الاخبار عن مزايا بعض البلدان مسندة الى رواة مختلفين، الى وصف طويل فيه اسهاب وتدقيق عن الحرمين وبيت المقدس.

ولا بد لنا بعد هذا كله من الاشارة مرة ثانية الى ما في مقال السيد

١) انظر ص ٤ و١٦٢ من المصدر المذكور (Le Strange)
٢) « « ١٦٠ « «
٣) « ١٦٠و٤ « «
٤) ابن عبد ربه ١: ٢

شفيع القيّم في كتاب «عجب نامه» مما يفيد ان صاحب المقال يقطع ان ابن عبد ربه صاحب العقد قد حج الى المشرق وشاهد الحرمين ووصفها في هذا الباب[1] . وكنا بغنى عن الاشارة الى رأيه هذا لولا ان الرجل باحث قدير، ولولا ان الكتاب يضمّ مجموعة من الابحاث الشرقية القيّمة لطائفة من كبار المستشرقين، وقد اهدي كما اشرنا في فصل سابق الى المستشرق الاستاذ برون بمناسبة عيد ميلاده الستيني. ولا نظن الا ان السيد شفيع – بعد اطلاعه على ما ذكرنا – راجع عن رايه، ومسلّم معنا فيما ذهبنا اليه.

ولكن من الذي دسّ هذه الاخبار في فصل تفاضل البلدان على ابن عبد ربه ؟ وما السبيل الى معرفته ؟ يظهر قبل كل شيء ان الواضع اندلسي! ولعلّ هذا الامر قد دفع السيد شفيع في ان يزعم انه صاحب العقد : فلقد قابل هذا الواضع بين بعض الامور التي شاهدها وبين جامع قرطبة قال عن منى : « وبها مسجد اكبر من جامع قرطبة.»[2] وقال في باب صفة مسجد النبي : « ... ثم فوقه ازار مثل الاول فيه اربعة عشر باباً في صف من الشرق الى الغرب في تقدير كوى المسجد الجامع بقرطبة.»[3] واورد طائفة من المفردات التي يظهر من بحث السيد شفيع – اذا جاز لنا الاستناد اليه – انها اندلسية ولقد رتب لها السيد شفيع جدولاً كبيراً في آخر مقاله[4].

ونعود فنسأل انفسنا من هو هذا الاندلسي ؟ ولعلّ خير سبيل لمعرفته ان نلتفت الى ما سيلي :

لقد علمنا من درسنا حياة ابن عبد ربه صاحب العقد ان اسمه احمد وان كنيته ابو عمر، هكذا وردا في فرش دور كتب العقد، وفي كتب الذين ترجموا حياته بل انما قد وردا في شعر للقلفاط الشاعر هجاه به بحيث لا يبقى مجالاً للشك في صحة ذلك :

---

١) شفيع ٤٢٢
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦٥
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦٥
٤) شفيع ٤٢٢

يا عرس أحمد اني مزمع سفرا فودّعيني سرّا من ابي عمرا (١

غير اننا نرى في كتاب الياقوتة في العلم والادب باباً هو باب جامع الآداب ذكر في اوله « قال ابو عبدالله احمد بن محمد اول ما نبدأ به ادب الله لنبيّه » الخ (٢ وقد دهشنا لهذه الكنية ، ودهشنا لورود اسمه في اول الباب ، اذ هي المرة الوحيدة التي يرد فيها اسم ابن عبد ربه في اول باب ما. وانما جرى ابن عبد ربه على ان يذكر اسمه في فرش دوركل كتاب لا في اوائل الابواب، وقد ذكر اسمه في فرش دار الياقوتة هذه قال: «قال ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه » الخ (٣. فمن هو ابو عبدالله ذاك ؟

نرى في مقدمة ابن خلدون بحثاً عن الموشحات يذكر فيه ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ويكنيه ابا عبد الله (٤ : فهل كان لابن عبد ربه هذا كنيتان ؟ لقد ظن المستشرق Hartmann في كتابه *Das arabische Strophengedicht I, Das Muwaššaḥ* ان طبعة بيروت من مقدمة ابن خلدون قد اضافت كلمة « ابو » قبل عبد الله وان الاصل كان « عبد الله » دون « ابو » ، ولكنه يعود فيقول ولعلها كانت في الاصل « ابو عبد الله » ويظهر انه لم يطلع على هذا الموضع في العقد الذي وردت فيه عبارة: «قال ابو عبد الله» ولم يطلع ايضاً على طبعة مصر لمقدمة ابن خلدون سنة ١٢٧٤ هـ . فانها تدوّن الاسم « ابو عبد الله » لا « عبد الله » ، وكذلك نرى في الطبعة الازهرية للعقد «ابو عبد الله». وعلى كل حال لقد احسن Hartmann في انه لم يقطع في الامر.

ترى هل كان هناك شخص بهذه الكنية من آل عبد ربه ، وهل لهذا الشخص علاقة في هذا الموضوع الذي نحن بصدده ؟

ذكر المقري في كتابه نفح الطيب ، في الباب الذي قصره على التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق ، رجلاً من آل عبد ربه كنيته ابو عبدالله وصفه بالكاتب ، وذكر له شعراً ، وروى عنه انه اجتمع في رحلته

١) المقري ٢ : ٨٢٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٠
٣) ابن عبد ربه ١ : ١٦٨
٤) ابن خلدون ٥٨٤

الى الشرق بالسعيد بن سناء الملك ، واخذ عنه شيئاً من شعره ورواه بالمغرب[١].
وعاد فذكر مرةً ثانية في الباب نفسه رجلا من هذا البيت قال :« ومنهم (اي من الراحلين الى المشرق) ابو عبد الله محمد ابن الشيخ الاجلّ ابي الحسن ابن عبد ربه وهو من حفداء صاحب كتاب العقد المشهور . » وذكر بعض الاخبار عنه وروى بعض الابيات من شعره ، ثم ختم ترجمته بقوله :« وتقدمت ترجمة الكاتب ابي عبد الله بن عبد ربه واظنه هذا فليتنبه لـه بل اعتقد انه هو لا غيره والله تعالى اعلم »[٢].

ولعلّ من الخير قبل اظهار رأينـا في الامر ان نلفت النظر الى انه ليس من اللازم ان نتمسك بقول ابن خلدون عن ابي عبدالله هذا انه صاحب العقد[٣]، اذ يجوز ان تكون عبارة « صاحب العقد » زيادة من المتأخرين ، او يجوز انها خطأ من ابن خلدون لم يلتفت اليه ، لاسيا وان ابن عبد ربه صاحب العقـد ، كما سنرى في بحثنـا عن شعره ، لم يُعرف في نظم الموشحـات كما زعم ابن خلدون . ولا بد لنا ايضاً من الاشارة الى عدم تدقيق ابن خلدون في الاخبار التي ذكرها عن صاحب العقد حيث اننا نجد تغييرًا عظيماً في الرواية التي نقلها عن العقد من ابن المأمون وزواجـه ببوران بنت الحسن بن سهل . فان ابن خلدون قد نسب الى المأمون في القصة التي نقلها ابن عبدربه ما لم يذكره هذا[٤].
ومما يدلّ على ان ابن خلدون قد حمل على ابن عبد ربه ما لم يقله ، او انه على الاقل لم يكن مدققاً فيما نقله عنه .

نرى بعد هذا كله انه يجوز لنا ان نظنّ ان لابي عبد الله هذا يدًا في هذا الدس . وسنعرض لهذا الشخص المذكور عند بحثنا عمّا اذا كان صاحب العقـد نظم الموشحات من الشعر ام لا !

---

١) المقري ١ : ٣٧٣-٣٧٤
٢) المقري ١ : ٣٨٣-٣٨٤
٣) ابن خلدون ٥٨٤
٤) قابل بين رواية ابن عبد ربه ٣ : ٤٥٢-٤٥٦ ، وما نقله ابن خلدون ٢٠

بقي شيء واحد وهو ان النسخة التي روجعت عند طبع العقد ببولاق ، والتي اشار الناشرون الى انها « المشهورة بالصحة والضبط والمعوّل عليها في الغالب في الجمع والتصحيح »[1] قد كُتبت فيما يظهر بعد موت ابن عبد ربه ، اذ ان في النسخة المطبوعة بين ايدينا عبارات تفيد ذاك مثل « رحمه الله »[2] (الضمير يعود على ابن عبد ربه) ، او « رضي الله عنه »[3] ، او « تغمده برحمته »[4] الخ . وقد يجوز ان يكون الناشرون اضافوها .

وكم كنت اود لو كانت بين يدي نسخ العقد الخطية المختلفة علّني بواسطتها استطيع الجزم حيث ظننت ، او الرجوع عمّا قطعت . واني لمغتنم هذه الفرصة لتوجيه ندائي الى كل عالم ممن يقرأون هذه السطور ، لاسيما في بلدان اوربة حيث توجد نسخ خطية للعقد ويستطيعون جلاء شيء من غامض هذا الامر ، ان يتكرّم عليّ بارسال ما يرتأيه او يستند اليه ، سواء أكان مطابقاً لما ذهبت اليه او مخالفاً له .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢ قبل المقدمة

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٥ و٣ : ١١٦

٣) « « ٣ : ٦٠ و ٢

٤) « « ١ : ٨٢

الاشعة المجهولة

بقلم انطوان باز
المهندس من المكتب الافرنسي في بيروت
ومن مدرسة الكهرباء العليا في باريس

١

في الثامن والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٨٩٥ صدر عددُ مجلة مجمع الطب والفيزيا في ويرزبورغ ، من اعمال المانية ، بمقال للعالم رنتجن (W. C. Röntgen) عن اكتشافه نوعاً من الاشعة يُعرف اليوم بالاشعة المجهولة او اشعة رنتجن . قال العالم الالماني :

« اذا قبلنا في انبوبة « هيتورف » او انبوبة « لينار » او غيرها ، مما جعل فيها الفراغ تاماً ، تيار بكرة « رومكورف » الكهربائي ، ولففنا الانبوبة بغلاف محكم من الكرتون الرقيق ، وجعلنا في الغرفة قرب الآلة لوحةً من الورق المدهون بپلاتينوسيانور الباريوم ، رأينا اللوحة تتلألأ نورًا مهما كان اتجاهها وحتى لو بعدت عن الآلة بمترين .

« وبديهي ان سبب اللمعان انما هو في الآلة وليس في الحبل الكهربائي .

« ومن العجب في الحادث المذكور ، هو ان الكرتون ، الذي لا يدع ممرًا لاشعة الشمس والاشعة البنفسجية واشعة الشهاب الكهربائي ، يخترقه عاملٌ يحدث تلالؤ بعض الاجسام . »

الى ان قال :

« ورأيت اللوحة تتلألأ نورًا وبينها وبين مورد الاشعة المجهولة كتابٌ مجلد تبلغ صفحاته الالف . وظهر لي ان حبرَ الطباعة ليس بمانع للاشعة المذكورة الّا اذا جعلت منه اوراق بعضها على بعض . والخشب شفافٌ ايضاً على ان لا تزيد غلاظته الثلاث سنتيمترات . »

وبعد ان اختبر رنتجن مفاعيل تلك الاشعة في كثير من الاجسام كالزجاج والماء والمعادن وغيرها ، جرّبها في الحيويات ، فجعل بين اللوحة والاشعة يدًا بشرية فتصوّر على اللوحة شبحٌ يظهر فيه الجهاز العظمي مظلماً واللحم حوله

خيالاً كما يرى في الرسم ٢ [1].

ظهرت مقالة رنتجن فتحركت لها اندية العلوم، وعمد الكل الى استثبات ما بسطه العالم الالماني فكانت اختبارات شتى.

وجاءت فكرة استخدام الاشعة المجهولة في الطب لرؤية ما في داخل الجسم من العوارض والاجسام الغريبة كعظم مكسور، وابرة غرزت في اللحم، ورصاصة تغلغلت بين الضلوع فصعب على الجرّاح استئصالها، وتقدم ذلك الفن فظهرت بالاشعة امراض كثيرة لم يكن يكشفها الشعاع الرنتجني من ذي قبل كامراض الصدر، والامعاء، والحصى المتكون على انواعه... وادّى تقدم العلم الى تصوير ما كان يراه الطبيب على اللوحة البيضاء بواسطة شريط فوتوغرافي يُجعل امام اللوحة فتُطبع عليه صورة ما تخترقه الاشعة من الاعضاء.

وهكذا ساعدت الاشعة المجهولة على تشخيص العلل في الانسان. ويعرف اليوم هذا القسم من الطب « بالراديودياگنوستيك » (*radiodiagnostic*) وهو كما جاء ينحصر اماً في رؤية الشبح عياناً على اللوحة فيسمّى « الراديوسكوبي » (*radioscopie*) واماً في تصويره فيدعى « الراديوگرافي » (*radiographie*). وقد مثلنا في الرسم ٣ عملية رؤية المريض على اللوحة، وفي الرسم ٤ تصويره.

واصيب بعض الاطباء المتخصصون بالاشعة المجهولة بامراض عضالة تبين انها من تأثيرات تلك الاشعة، فهي اذا اخترقت الجسم طويلاً أثّرت في خلاياه الحيوية فقتلتها. ولذلك فقد اتخذ المعرّضون لتلك الاشعة من الاطباء، تحفّ بهم من كل صوب، جميع الوسائط لوقايتهم. وافعل الوسائط اليوم الدروع الرصاصية المعمولة من مواد يدخلها ذلك المعدن كالمطاط الرصاصي والبلور الرصاصي وغيرها.

ولما كانت الاشعة الرنتجنية تؤثر في الخلايا الحيوية فتقتلها، تساءل الاطباء هل من وسيلة لاستخدامها في قتل الخلايا الخبيثة كالتي تكوّن بعض الامراض

---

١) لقد اهدى الينا هذا الرسم حضرة الدكتور يوسف الاسمر المتخصص بالاشعة في المستشفى الفرنساوي في بيروت، وفي مصح بحنس (لبنان). اماً باقي الرسوم المنشورة فهي من قبل الشركة العمومية للاشعة، في باريس (*Cie. Gle. de Radiologie*) وهي اليوم اهم شركة في العالم لصنع كل ما يتعلق بالاشعة المجهولة.

وامها السرطان ، فادّى الاختبار الى نتائج حسنة . فالاشعة المجهولة اذا تعاون اليوم اشعة « الراديوم » لمداواة ذلك المرض القاتل وغيره . وقد دعي ذلك الفن من استعمال الاشعة المجهولة لا للتشخيص بل للمداواة «بالراديوترابي» (*radiothérapie*).

ولم يتوقف استخدام اشعة رنتجن على الطب فقط فقد تسرَّب الى كثير من الصناعات . كيف لا وبها تعرف اليوم تكاوين المعادن الداخلية ، وتغيرها باختلاف العوامل الخارجية من ميكانيكية وفيزيكية ، كيف لا وقد توصلوا ايضاً لان يميّزوا بها اللآلئ الطبيعية من اللآلئ المصطنعة فلم يبقَ في تجارة ذلك الدرّ للغش مجال .

اما وقد تبينت اهمية الاشعة المجهولة فاننا نشرح مفصلاً كيفية توليدها وانواع استخدامها في الطب والصناعة فنقول :

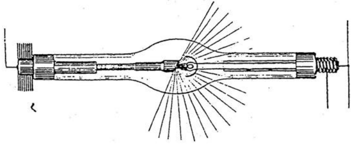
انبوبة «كوليدج»

اذا اخذنا انبوبة ، كالتي تُرى في الرسم ٥ ، محكمٌ سدها وفي طرفيها قطبان من النحاس الاحمر ، ثم عملنا الفراغ فيها رويداً رويداً ووصلنا القطبين الى مولّد كهربائي عالي التوتّر ، رأينا شعاعاً من النور يمتد ضمن الانبوبة من قطب الى الآخر . فاذا زدنا عملَ الفراغ جاء الشعاع متقطعاً كجلد حمار الوحش ، حتى اذا بلغ الفراغ حدّاً يقابل ١٠٠/١ من المليمتر في العمود الزئبقي اختفى الشعاعُ بتاتاً . غير اننا رأينا في الظلمة زجاج الانبوبة يتلون اصفراراً من مفعول اشعةٍ تخرج من القطب السلبي (*cathode*) وتعرف بالاشعة السلبية (*rayons cathodiques*) . وهذا النوع من الاشعة مظلم لا يرى الّا بما يُسير من التلألؤ في بعض الاجسام كالزجاج . وقد ثبت ان هذه الاشعة تسير سيراً مستقيماً بسرعة عظيمة بيد انها لا تخترق الاجسام مها كانت سخافتها اذ ان تكوينها من حبيبات كهربائية يرسلها القطب السلبي .

والعجيب انه اذا جُعل على طريق الاشعة السلبية حاجزٌ معدني (*anticathode*) تحوَّلت تلك الاشعة السلبية الى اشعة رنتجن . وقد حسب البعض ان الاشعة المجهولة ما هي الا الاشعة السلبية معكوسةً على سطح الحاجز ، وهذا خطأ

لان اشعة رنتجن تختلف كل الاختلاف عن الاشعة السلبية، سواء كان من قبيل تكوينها او من قبيل مفاعيلها . فبينا تظهر الاولى كناية عن حبيبات كهربائية تقف عند اول حاجز ميكانيكي، تكوّن الثانية تموجات تخترق الاجسام كما تقدم، فلا توقفها الا صفائح بعض المعادن كالرصاص.

ويجوز ان يكون الحاجز المولّد للاشعة المجهولة القطب الايجابي نفسه مشطوباً كما في الرسم ٥ . وضربُ الاشعة السلبية للحاجز يولد بالاحتكاك حرارةً قوية يُخشى منها ذوبان القطب . وعليه فقد جُعل طرف ذلك القطب الحاجز من معدن التنكستان (*tungstène*) واعلاه من النحاس الاحمر تسهيلاً لافراز الحرارة المتولّدة . وفي اكثر الاحيان يُبرَّد القطب بواسطة طربوش معدني (م) يجعل في مؤخره، فيزيد في افراز الحرارة للخارج، ومن الانابيب ما يبرّد بالماء. او بوضعه بالزيت بكامله.



الرسم ٥ — انبوبة كوليدج لتوليد الاشعة المجهولة

وتبين ان كمية الاشعة السلبية الصادرة من القطب السلبي، وكذلك الاشعة المجهولة المتولدة من الحاجز المعدني، تكثر بارتفاع حرارة القطب السلبي. لذلك يجعل في وسط السلبية شريط لولبي يحميه تيارٌ كهربائي خفيف التوتر . فتعدَّل كمية اشعة رنتجن المطلوبة بتعديل حرارة الشريط بواسطة المجرى.

الراديوسكوبي

قلنا ان المجرى اللازم ادخاله في انبوبة كوليدج لتوليد الاشعة المجهولة

قوي التوتر ، وهو في الغالب يتراوح بين الاربعين الف والمائة الف ڤولت . ولما كان المجرى الكهربائي الذي توزعه الشركات للتنوير وباقي الحاجيات خفيف التوتر لا يتجاوز ٢٢٠ ڤولت ، لزم رفع هذا المجرى الى توتر عالٍ بواسطة محوّل كهربائي . ونظرًا لخطر المجرى العالي فكثيرًا ما يوضع ذلك المحول ضمن صندوق من الخشب او المعدن تجعل فيه ايضاً بعض الآلات الثانوية . والمجموع هذا يعرف بالمولّد الكهربائي وهو ما يرى من عن شمال الرسم ٦

ولما كان المجرى الخارج من المحوّل متناوباً (*alternatif*) اي متغير الاقطاب ، ينقلب القطب الايجابي فيه سلبياً والعكس بالعكس مائة مرة في الثانية ، وجب تقويمه اما بحركة ميكانيكية ويعرف هذا با *contact tournant* واما ، وهو الغالب اليوم ، بواسطة انبوبة تعرف « بالسدّة » (*valve, ménotron*) تمنع مرور المجرى عند انقلاب الاقطاب ، والسدة في الرسم ٦ موجودة ضمن المولّد . وقد يُستغنى عن تقويم المجرى في الآلات الصغيرة اذ ان ذلك التقويم تحققه انبوبة كوليدج نفسها ، اللهم اذا كانت مبرّدة القطب .

ويتبع المولّد « منضدة » (*pupitre*) تجعل فوقه آلة لوزن التوتر ، واخرى لوزن المجرى الداخل على الانبوبة ، وازرار لتعديل التوتر والمجرى . ثم تأتي طاولة الفحص واحدثها اليوم قلّاب يسمح من فحص المريض نائمًا كان او واقفاً . وتحقق حركة القلوب بواسطة فراش لولبي يدير الطاولة حول محور مسطّح (راجع الرسم ٣ والرسم ٤)

وامام الطاولة اللوحة البيضاء يظهر عليها العضو من الجسم الذي تخرقه الاشعة المجهولة . ووراء الطاولة ، يدور معها او يُفصل عنها ، « حامل » لانبوبة كوليدج (*support d'ampoule*) . وهو ، بحركة خفيفة ، يروح يمنًا او شمالًا وصعودًا او نزولًا . فتحكم الاشعة العضوَ المطلوب من جسم المريض . وبين الانبوبة والطاولة اطارٌ حاجزٌ متحرك (*diapbragme*) مربع الشكل او مستطيله، يُصغَّر او يكبّر لحصر الاشعة او نشرها ، كما لو قصد الطبيب استيضاح نقطة معلومة من الصدر ، مثلًا ، او النظر اليه بجمله .

وتستعمل الآلة بان يوصل قطب الانبوبة الى المولد الكهربائي بواسطة

شريط مخصوص . ويجب الانتباه كل الانتباه الى ان يكون كلٌّ من الشريطين بعيدًا عن الآخر،وبعيدًا عن معدن الآلة، لئلا تنشب منه ، بقوة الضغط ، شرارة كهربائية خطرة . ثم يُدخل المريض ، نائمًا او واقفًا ، بين الطاولة واللوحة ، وتزاح هذه حتى تحكم فوق العضو المقصود فحصه وتلصق به . وفي الغالب ما يُعرّى المريض من ثيابه طلبًا في زيادة الوضوح . وبعد ذلك يرسل الطبيب المجرى في المحوّل ، ومنه في الانبوبة ، ويعدّل توتّره وكميته مستعينًا بآلات الوزن . امَّا التوتّر المستعمل فيتراوح بين الثلاثين الف ڤولت للاجسام والاعضاء النحيلة ، كما في الاطفال والاولاد ، وبين الستين الف ڤولت للاجسام الغليظة . وكمية المجرى تكون ثلاثة او اربعة من الف من الامپار . ثم يحرك «حامل الانبوبة» كي تصيب الاشعة المجهولة المقصود من الاعضاء . وتعدّل معه فتحة الحاجز .

ولا يخفى ان الفحص الراديوسكوبي يُجرى في الظلمة كي يتضح لمعان اللوحة . ويعلم من اعتاد ذلك الفن ان الصورة المطبوعة على اللوحة تزيد جلاء مع الوقت ، وذلك لاعتياد عدسية العين الظلمة ، وهو ما يُعرف في علم الفيزياء بالـ (*accomodation*) .

يُفحص بالاشعة الجهاز العظمي وما فيه من كسور وشعور وزوغان ؛ والرئتان ، وقد تظهر بالاشعة تجويفاتها وخلاياهما الناتجة عن مرض السل ؛ والقلب وحركاته . وكثيرًا ما يُحدَّد القلب على ورقة تجعل فوق اللوحة ، فيرى اذا كان فيه من تضخّم . وفي فحص القلب يجب ابعاد الانبوبة عن الطاولة مترين تقريبًا حتى لا يأتي الشعاع مخروطًا فيجيء خيال القلب على اللوحة اكبر مما هو في الحقيقة كما لو وضعنا نورًا قريبًا من كتاب فجاء خياله على الحائط مكبّرًا . ويُسمّى هذا الفحص بابعاد الانبوبة (*téléradiographie*) .

ومن الاعضاء ما لا يظهر بسهولة كالامعاء مثلًا . غير ان الطب قد توصل الى دواء يدعى (*Gélobarine*) يتجرّعه المريض بالماء فيسير في المعدة ثم في الامعاء فتظهر هذه سوداء بلفيفاتها واعوجاجاتها .

ولا يحسب القارئ ان الفحص بالاشعة سهل ، فهو غالبًا من الصعب يتطلب من الطبيب حكمةً وتمرنًا لشرح ما يتصور امامه من الخيال . . . (لها صلة)

التذكار المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق



لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم ا. سركيس

٣

في الاراضي المقدسة

بعد التعرف الى استير استنهوب ، اميرة الصحراء ، والى الامير بشير الشهابي ، صاحب لبنان ، كان من البديهي ان يميل لامرتين نظره شطر فلسطين والاراضي المقدسة ، التي كانت الداعي الاهم لمجيئه الى الشرق.

وهكذا كان . فبعد ان استراح في بيروت اياماً قليلة مع عائلته ، شدّ ركابه من جديد . وفي ٨ تشرين الاول اخذ طريق اورشليم ، عابراً بصيدا ؛ فصور ، فعكا المحاصرة اذ ذاك بعساكر ابراهيم باشا ، فحيفا ، حيث زاره شاعر عربي « لبناني الاصل من سكان حلب »[1] ؛ فتحدثا في الشؤون الادبية . ثم عرض عليه لامرتين ان ينظما في موضوع واحد ، وحفظ ترجمة القصيدة العربية في مذكراته الى جانب قصيدته[2] . ثم مرّ بقيصرية ، ويافا «السحرية المناظر ، الموضع الوحيد في الشرق الذي يحسن بعشاق الطبيعة ان يشتوا فيه .»[3]

وحلّ ضيفاً في دير الرهبان الفرنسيسكان في صحراء يافا ؛ فاخبروه ان الطاعون منتشر في اورشليم وجوارها ، فلا يمكنه لذلك ان يدخلها . غير انه ابى ان يرجع ولم يتبرك بلثم قبر المسيح ، ولو عرّض حياته للخطر . وابى جميع رفاقه وخدامه ايضاً الا ان يرافقوه.

١) جزء ١ : ٣٤٦

٢) لم نعثر في ما طالعناه من شعر القرن الماضي على نصّ القصيدة العربي ، كما اننا لم نستطع ان نكشف القناع عن اسم صاحبها وشخصيته.

٣) الرحلة ١ : ٢٧٥

ولنلاحظ هنا ان لامرتين اعجب كل الاعجاب بجمال الطبيعة والخصب اللذين رآهما في البلاد الفلسطينية. وقد بلغ من اعجابه ان يفكر بالسكنى في فلسطين وبتأسيس مستعمرة زراعية فيها، لما رأى من استعدادها للزراعة وقبول الحضارة والعمران. قال يصف ارض عكا : انها مخصبة، جميلة المناظر، «وهي ارض الميعاد، حتى في ايامنا، لو كان فيها ادارة قوية وحكومة مستقيمة.»[١]

غادر لامرتين يافا مع حاشيته وفصيلة من الجند زوّده بها حاكم المدينة. وعند المساء اكتحلت عيناه برؤية المدينة المقدسة «الباهرة بانوارها والوانها»[٢] فنصب خيامه خارج الاسوار، حيث قضى ليلته. ولما اطلّ الصباح، خلع نعليه، وطلى رجليه بالزيت، كيلا تعلق بهما جراثيم الطاعون. ودخل الى اورشليم، يقوده جنديان، ارسلهما الحاكم لهذه الغاية. وبعد ان قابل الحاكم ونال منه السماح بدخول المدينة متى شاء، زار السلطات الدينية والمدنية وبعض الكنائس والآثار المقدسة. وكان قد امسى فعاد الى خيامه. وفي مدة ثمانية ايام، لم يزل في خلالها معسكرًا على اسوار اورشليم، طاف في المواضع التاريخية، كالناصرة والاردن واريحا والبحر الميت ووادي موسى (Arabie Pétrée)

اما عن عواطفه الدينية في كل هذه الامكنة، فحدث ولا حرج. فقد كتب منذ دخوله الحدود الفلسطينية ان «كثيرًا ما كان يتبدل سفره بصلاة متصلة»[٣]. وقال بعد ان قضى ليلة في الناصرة «لقد نهضت مرارًا كثيرة في الليل لارفع صوتي وعواطفي الى الله الذي اختار هذا المكان منشأ لابنه»[٤]. واثبت وهو في صحراء الاردن «ان قلبه لم يصغ الى موضع في الدنيا بلذة وسرور، كما اصغى الى هذا الموضع.»[٥] اما عن القبر المقدس فيقول :

«المسيحي والفيلسوف، الاخلاقي والمؤرخ، كلهم يجب ان يروا في هذا القبر الحدّ الفاصل بين عالمين : العالم القديم، والعالم الجديد. فهو مبعث فكرة جددت المسكونة، ومطلع مدنيّة حوّلت كل شيء، ومصدر كلمة دوى صداها في كل الارض.»[٦]

وبعد ان طاف في جميع ما امكنه طوافه من الاراضي الفلسطينية، وتبرك

---

١) الرحلة ١ : ٢٦٢ — ٢) الرحلة ١ : ٤٠٩

٣) الرحلة ١ : ٢٦٢ — ٤) « ١ : ٢٩٧

٥) « ١ : ٣١٠ — ٦) « ١ : ٤٢٥

بالامكنة المقدسة ، عزم على الذهاب الى مصر . واذا برسالة من بيروت تفيده عن صحة عائلته ، وفي ختامها حاشية من ابنته جوليا تقول فيها انها بشوق اليه فيجب الّا يطيل سفرته بعد . فعدل عن رأيه واستلم طريق لبنان.

موت جوليا

بيد ان امرًا خطيرًا كان ينتظره في بيروت ، بعد هذه الرحلة البعيدة . فان المرض الذي رافق ابنته جوليا من فرنسة ، والذي كان يأمل شفاءها منه في هواء لبنان الجميل ، ظلّ ينهك قواها سرًّا ، بينما كانت صحتها تتحسن في الظاهر . وصل ابوها الى بيروت فاظهرت من السرور بلقائه ما ادهش العقول . ورأى من تقدم صحتها ما فرّح فؤاده . ولكن لم تمضِ بضعة ايام حتى ظهرت اعراض المرض فجأة . وقبل ان يستريح لامرتين من اتعاب سفرته ويتمتع كفاية بهذه الغبطة ، صعق قلبه بألم لم يستطع وصفه الا بالسكوت عدة اشهر ، اذ كان في ٢٥ تشرين الثاني من سنة ١٨٣٢ يحمل بين ذراعيه ابنته المحبوبة ، جثة هامدة . فحنّطها ليرسلها الى فرنسة حيث تدفن في مدافن آبائه ، حسب رغبتها الاخيرة . وقد حفظ لها في قلبه موضعاً عميقاً ورثاها بقصيدة من اجمل شعره ، نشرت في مذكراته دون ان يراجعها او ينقحها . وان رسائله ، التي كتبها في هذا الشأن ، تفيض بالعواطف الرقيقة والالم الحقيقي . ولا عجب ، فقد كانت جوليا وحيدة لابويها اللذين ابلغاها الى سن العاشرة بعناية تغلبت على جراثيم الامراض المتسلطة عليها . ولكن تغيّر الهواء الفجائي في بيروت عجّل في قطافها ولما تعرف جمال الحياة.

فمن البديهي اذن ان يكون هذا الحادث الجليل انتصب عقبة كؤودًا امام وجه لامرتين ، فمنعه اتمام سياحته . وهكذا كان . فانه في بادئ الامر لم يصغِ الّا الى صوت حزنه ، وقصد الرجوع الى فرنسة باقرب وقت . ولكن الشتاء كان قد دخل ، والمركب (L'Alceste) لا يرجع ليأخذه الا في الربيع . فقضى في بيروت اربعة اشهر حزيناً ، ضائع القوى : « حتى كاد اليأس يستولي

عليه ، واعتقد انه لاحق ، ولا شك ، بابنته الى القبر.»[١]

ومما كان يزيد في حزنه والمه انه سيموت دون ان يخلف نسلاً ويتمتع بلذة الابوة.

وتمضي عليه الاشهر الاربعة في وحشته ، فتحنّ نفسه الى الطبيعة التي اعتاد ان يجد فيها تعزيته ، فيشدّ رحاله بقلب كسير ليطوف بقية البلاد السورية واللبنانية.

في اطلال بعلبك

ترك لامرتين بيروت في ٢٧ آذار ، قاصداً بعلبك مستصحباً معه هذه المرة قرينته الثكلى ، فباتا الليلة الاولى في حمانا حيث استقبلهما شيخ القرية ، حسب اصول الضيافة العربية. ويشهد لامرتين « ان قصر هذا الشيخ يفوق بالاناقة والظرافة ونبل الظاهر كل ما رآه من الابنية في لبنان ، بعد قصر الامير بشير»[٢]

ثم قام الى زحلة حيث نزل في مطرانية الروم الكاثوليك. وقدم له الاسقف كل ما سمح له فقر كرسيه بتقديمه. ولعل لامرتين ألمّ بشيء من وصف هذا الفقر حيث قال:

« ان كل غنى الاسقف في زحلة يقوم ببعض كتب عربية ويونانية مبعثرة في غرفته وصندوقة عتيقة فيها اثوابه وبدلاته الحبرية »[٣]

لكنه ، على وجه الاجمال ، يمدح كرم اهل زحلة وحسن استقبالهم وبشاشتهم للغريب. وفي ٣٠ آذار سار بقافلته الى بعلبك.

وهناك ايضاً اضافه اسقف الروم الكاثوليك.

ولكن في اي منزل ! بيت افقر فلاح في فرنسة افضل من مطرانخانة بعلبك ! بعض غرف هرمة يفصلها رواق متهدّم : هذا قصر المطران ! والى جانبه غرفة اوسع قليلاً من البقية ، في صدرها مائدة من بقايا الهياكل المجاورة : هذه هي

---

١) من احدى رسائله.

٢) الرحلة الى الشرق ٢ : ١٠ ، كل من زار حمانا اراه سكانها بيتاً قديماً محولاً الى متحف خاصّ بشاعرنا ، مثبتين انه المنزل الذي سكنه لامرتين – لا ليلة واحدة بل اياماً عديدة – ولكن هذا الاثبات يحتاج الى شيء من البراهين ، ولاسيما اذا نظرنا الى هذه الاوصاف الفخمة التي سطرها لامرتين عن المنزل الذي بات فيه ليلة واحدة.

٣) الرحله الى الشرق ٢ : ١٠٤

كاتدرائية مدينة الشمس! تجتمع فيها العيال المسيحية القليلة، المبعثرة بين قبائل الاعراب المسلمين.

ولكن لا بأس. فليس هذا ما جاء لامرتين لاجله: انه بقرب اطلال بعلبك. وصل عند المساء، وما كاد يقابل الاسقف مضيفه ببعض كلمات ودية، ويتناول لقمة من الطعام، واذا به بين الخرائب، يتأملها على ضوء القمر، فيغوص في بحر من التأملات والخواطر الوجدانية.

ويظهر مما قاله في وصف هذه الاطلال، انها كانت في اوائل القرن الماضي، حين زارها، اقل خراباً واصلح بكثير مما هي عليه اليوم.

لكن من الغريب ان لامرتين كان يستقصي تاريخ الامكنة التي يمرّ فيها ويتحقق من ثبوت الوقائع التي يذكرها؛ حتى اذا تكلم عن بعلبك، اكتفى بالاخبار التقليدية المتناقلة.

نعم انه ينفي الاسطورة القائلة ان باني بعلبك هو سليمان الحكيم. ويبرهن عن ذلك: اولاً بان مملكة سليمان لم تتعدَّ حدود دمشق؛ ثانياً بان سليمان، لو امكنه ان يقوم بمثل هذا البناء العظيم، لبنى مثله في اورشليم، حيث لا نرى بعد اثراً للهيكل الذي شيده لاله اسرائيل. ولكنه لا يتصل الى معرفة بناة بعلبك الحقيقيين، الذين اثبت التاريخ الحديث انهم اليونان والرومان. وينسب هذه الآثار العظيمة لعصر الجبابرة الاوائل. فيدوّن في مذكراته ان الاعراب اكدوا له وجود قبور، بقرب بعلبك، فيها عظام بشرية عجيبة في عظم حجمها؛ ويأسف لكون الوقت لم يسمح له بزيارة هذه الآثار الغريبة وتفقدها.

ثم يختم قائلاً:

« مهما يكن من الامر، فان البعض من حجارة بعلبك التي يبلغ طولها ٦٢ قدماً وعرضها ٢٠ وسماكتها ١٥، هي اعظم الاجرام التي استطاعت اليد البشرية ان تحركها. » (١

وفي اليوم الثاني، انتقى من حجارة بعلبك بعض قطع تعهد له الاسقف بارسالها الى بيروت، ليحملها الى اوربة « فيغني بها المتاحف ودور العلم »؛ ثم القى النظرة الاخيرة على هذا المتحف العظيم، الضائع في رمال الصحراء. وولى نظره شطر دمشق.

---

١) الرحلة ٢: ٢٦

في دمشق

لم يكن في ذلك العصر عربات ولا سيارات ، فتقرب المسافة بين بعلبك والشام ؛ فكان لا بد للمسافر من ان يقضي بعض ايام على الطريق قبل الوصول الى عاصمة سورية . ولذلك كان سرور لامرتين وقافلته عظيماً اذ ظهرت لهم الزبداني ، « تلك القرية الفتانة » . فدخلها بعد المغيب ، وخرج منها قبل الشمس « فكانت اذ ذاك اجمل في عينيه مما رآها عليه بالامس »[1] وتمنى لو يحظى بمثلها في جميع مراحله . والحق انه لم يتكلم عن مدينة او قرية بالاعجاب واللذة اللذين تكلم بهما عن الزبداني ، اذ ظهر له من كرم اهلها وحسن ضيافة شيخها ما سرّه واراحه .

وفي ٢ نيسان قبل ان يدخل دمشق غيّر الثوابه الاوربية بأثواب عربية خالصة . وتزيت قرينته بزيّ السوريات الكامل ، كي لا يعرف الدمشقيون انهما افرنج ، فيكون ما لا تحمد عقباه . لأن « اهل الشام يكرهون اوربة الى حدّ انهم لم يقبلوا عندهم لا قناصل ولا ممثلين لتلك البلاد المسيحية »[2]

واذ بلغ ابواب المدينة وجد في انتظاره رجلاً من تجار الشام ، افرنسي الاصل لكنه يخفي نسبه تحت اسم ارمني ؛ وكان لامرتين قد تعرف اليه في اثناء رحلته . فاضافه في بيته وكان دليله الامين مدة اقامته في عاصمة سورية : فزار واياه كثيرين من رجالها وطوّفه في جميع آثارها .

وان من يقرأ وصف لامرتين لدمشق ، ثم يتفقد احوالها في هذا العصر لا يجد كبير فرق بينها في الامس واليوم . فهي ، مثلاً ، لا تزال مشهورة بصنع الحلويات والمربيات ، واهلها دائماً رجال صناعة وتجارة ، محنكون في سياسة الامور ، يعرفون ان يدخلوا المشاريع الاقتصادية من ابوابها ؛ وشوارعها القذرة ، وجدران بيوتها الخارجية المبنية باللبن والطين ، لا تدلّ اقل الدلالة على جمال منازلها في الداخل ، من بحيرات وجنائن ورياش غني وترتيب ونظافة . هكذا رآهم لامرتين ، وهكذا لا تزال نراها اليوم في اكثر احيانها .

---

١) الرحلة ٢ : ٥٨ ٢) الرحلة ٢ : ٦٠

فلنسمعه الآن يصف الجامع الاموي قال :

« لقد شاهدت ساحة الجامع الكبير من احد ابوابه المطلة على الشارع . كان هذا الجامع في الاصل كنيسة على اسم القديس يوحنا الدمشقي (١ . ويظهر لي انه وكنيسة القبر المقدس في اورشليم من بناء عصر واحد . فهو فسيح ، بباهظ المنظر ، على النسق البيزنطي ، المقلد النسق اليوناني تقليدًا فاسدًا ، حتى كانه مبني من بقايا اخربة عتيقة . اما ابواب الجامع الكبرى فمغطاة باستار ثقيلة . ولم استطع ان ارى الداخل ، لان المسيحي الذي يدنس الجوامع بدخوله اليها ، يعرض نفسه لخطر القتل . فاكتفينا اذن بالوقوف قليلًا في الساحة بحجة اننا نشرب من الحوض . » (٢

واذا كان لامرتين لم يعجب ببناء الجامع الاموي فقد وجد في دمشق ما جعله يهتف :

« ان شعبًا يرسم مهندسوه ويتمم بناؤوه اثرًا كخان اسعد باشا ، لا يمكن ان يموت فيه الروح الفني . » (٣

وزاد في تقريظ دمشق ، فقال ، وقد استيقظت روحه الشعرية .

« ليس على وجه البسيطة مكان يذكر جنة عدن اكثر من دمشق . . . ما دام على الارض ممالك فدمشق تظل مدينة عظيمة . » (٤

ثم احصى سكانها فكانوا اربع مئة الف ، حسب البعض ، او ثلاث مئة الف ، حسب غيرهم . اما المسيحيون فكانوا يعدون فيها ٣٠ الفًا ، على قوله .

ولقد كان في عزمه ان يتمّ رحلته من دمشق الى تدمر . لكن اخطار الطريق ، وطول هذه السفرة ، حولاه عن عزمه ؛ لا سيما انه بعد رؤية بعلبك لم يكن ليظن انه يجد ما يلذه في تدمر .

فودع مضيفه والقليلين الذين تعرف اليهم ، وخرج ، لا متخفيًا كما دخل ، لكن في حشد من الشعب ، بعضهم يحييه بالابتسام وبعضهم يرشقه بالشتائم .

وكانت الثلوج والامطار غزيرة ؛ فقاسى في رجوعه عناء كثيرًا . وفيما هو على طريق بيروت ، وقد قطع زحلة وحماناالتقى بساعٍ يحمل اليه بريد فرنسة ، وفيه رسالة من اخته تنبئه انه انتخب عضوًا لمجلس النواب .

١) والصواب على اسم القديس يوحنا المعمدان . لكن الشعب السوري ينسبها غلطًا الى الدمشقي . والحال ان هذه الكنيسة مبنية قبل مولده بزمن طويل . ٢) الرحلة ٢ : ٨٦

٣) الرحلة ٢ : ٨٦ خان اسعد باشا بناه اسعد باشا العظم ، حوالي سنة ١٧٥٠ ، بعد بناء قصر العظم المشهور وموقعه في سوق البزورية . ٤) الرحلة ٢ : ٩٤ .

من تاريخ الرهبانة اللبنانية

النسك والنساك في لبنان

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

٢٠

ذكرنا في مشرق آذار من هذه السنة مقدمات عن النسك وعن بعض الذين اشتهروا من النساك في رهبانيتنا وهـا اننا نجمل الكلام الآن على الحبساء الرهبان من سنة ١٧٨٤ فصاعداً.

١ محبسة دير قزحيا

نافيطوس بصبوص من صغار ، وافرام مزرعة كفرذبيان ، ومكاريوس العجلتوني ، واليشع المعادي مات ١٨١٩ ، مكث في المحبسة ثلاثين سنة ، والتقليد يشهد بسمو فضله . ومبارك ابي هاشم العاقوري ، وسبيريدون الزوقي ، وذكريا البكاسيني ، وفرنسيس فخري البشراوي ، وانطونيوس الصغابي توفي ١٨٥٦ ، ومن تقشفه كان لا يأكل سوى الخبز والزيت . وعبد الله البشراوي ، وجبرائيل راضي الشبابي ، واغوسطين الشدياق البشراوي ، وشقيقه الاب دانيال[1] . وعبد الله عواد الحصروني ، ومارون السرعلي ، وساروفيم تنيور ، ومرقس ايطو ، وانطونيوس جلوان السمراني من تولا الجبة.

ومن الاخوة : انطونيوس ميروبا ، مرتينوس تمور العربة . ويقيم فيها الآن الاب يوسف العكاري.

---

١) هذان الابوان أخوا والدة الاب شربل بقاعكفره الحبيس في محبسة دير عنايا.

٢ محبسة دير حوب

لا نعرف من حبسانها سوى الآباء الآتية اسماؤهم : سابا ، واثاناسيوس ، وواكيم الزوقي . واثاناسيوس الصغبيني ، سيم كاهناً في ١٩ ت ١ ١٨٢٦ ، وتوفي في ٢٠ ت ٢ ١٨٨١ بعمر ٩٥ سنة ، ولا تزال الى اليوم بقايا جسمه محفوظة ، وقد اجرى الله بشفاعته بعض العجائب . ارسانيوس الدبيّة ، ويونان العاقوري ، وبطرس الحرديني ، ومرقس داغر التنّوري .

٣ محبسة دير عنايا

الآباء : اليشع الحرديني ، شقيق رجل الله الاب نعمة الله الحرديني ، ويوحنا العاقوري ، وشربل مخلوف بقاعكفره ، وليباوس نون الراماتي ، ومكاريوس المشمشاني ، والاب انطونيوس الحصاراتي ، حبيسها الحالي .

٤ محبسة دير ميفوق

الآباء : دانيال العلم الحدثي المعروف « بقديس قرطبا » وماتيّا اده البترون ، وعبدالله المحمرشي ، وبطرس اللحفدي . وسمعان ابي رميا الاهمجي .

٥ محبسة دير القطارة

الآباء : مارون السرعلي ، وسمعان الاهمجي ، وليباوس الراماتي ، ومرتينوس بقسميّا .

٦ محبسة دير طاميش الجديدة

يسكنها اليوم الاب يعقوب ابي مارون مزرعة النهر ، ناهجاً نهج الحبساء القدماء في الاماتة والقداسة .

٧ محبسة دير مشموشة

لم نتصل الى شيء من تاريخها ، ولا الى اسماء الحبساء فيها سوى الاب مرقس الدبيّة . وقد خربت بسبب الحوادث في تلك البلاد ، ونال اديارنا هناك

من ويلاتها الشيء الكثير.[١]

وأشهر ابناء رهبانيتنا بالقداسة والنفوس الآباء: نعمة الله الحرديني، وشربل بقاعكفره، ودانيال الحدثي، والراهبة الاخت رفقا الريس.

الاب نعمة الله الحرديني

هو يوسف بن جرجس كسَّاب من قرية حردين (بلاد البترون) واسم أمه مريم ابنة الخوري يوسف رعد يعقوب تنُّورين. وُلد في حردين ١٨٠٨، واقتبل سرَّ العماد والتثبيت فيها. دخل الابتداء في دير قزحيا في ١ ت ١ ١٨٢٨، ولبس فيه الزيَّ الرهباني في ١٤ ت ٢ ١٨٣٠، وسيم كاهناً بوضع يد المطران سمعان زوين. وتوفي مدبّراً في كفيفان، منتصف ليل الثلاثاء في ١٤ ك٢ ١٨٥٨.

وها قد مرَّ على وفاته اربع وسبعون سنة وجسده ما زال سليماً من الفساد، لصق به الجلد وامسى يابساً. زار في احدى السنين الاب متر اليسوعي دير كفيفان، وبعد ان صلى خاشعاً امام هذا الجثمان المصون في نعشه، سأل رئيس الدير الاب اغناطيوس التنوري ان يُخبره عن الفضائل التي امتاز بها هذا الاب. فقال: «تفرَّد بكل الفضائل الادبيَّة والرهبانية. واني اعجزُ عن ان أسردها لك واحدة واحدة. ولكن اقول باختصار: كان راهباً حافظاً قانونهُ بدقَّة.» قال الاب متر: «تكفيني هذه العبارة لاستدلَّ منها انَّ الراهب اذا حفظ قانونهُ، فقانونهُ يضمن لهُ الوصول الى السماء.»

أجرى الله على يده عجائب عديدة، ومع الامم الاجنبيَّة، طارت شهرتها في انحاء لبنان حتى وفي المهجر، وهي على ازدياد، منها الاعجوبتان المشهورتان في ايهابه الشفاء لمقعدٍ، والبصر لاعمى من سنين طويلة. اول من كتب عنه كلمة معاصره وعشيره الاب نعمة الله الكفري ودوَّن من عجائبه فوق الخمسين اعجوبة محقَّقاً عنها بنفسه، ونشر ترجمته مطوَّلة في مجلَّة «المشرق» (٥[١٩٠٢]:

---

١) من احبَّ الوقوف على تاريخ هذه المحابس والحبساء فيها نحيله الى قراءة كتاب «كشف الغطاء عن المحابس والحبساء» ١٩٢٣، للمرحوم الاب ليباوس داغر التنُّوري.

٦٠٥–٦١٥) . وقد رُفعت دعوى برارته ، وبرارة الاب شربل الحبيس ، والاخت رفقا ، الى رومة لاجل تطويبهم وتقديسهم .

الاب شربل بقاعكفره الحبيس

هو يوسف بن انطون زعرور من عيلة مخلوف . اسم والدته بريجيتا ابنة الياس يعقوب الشدياق من بشري . كان لها شقيقان راهبان حبيسان في محبسة دير قزحيا هما الايوان دانيال واغوسطين على مـا مرَّ . أبصر يوسف النور في بقاعكفره ، ونال سرَّ العماد والتثبيت فيها . ابتدأ في دير عنّايا ١٨٥١ . توشح بالزيّ الملائكي فيه في ١ ت ١ ١٨٥٣ . ورقّاه الى درجة الكهنوت المطران يوسف المريض في نيسان ١٨٥٩ . وقطن المحبسة ١٨٦١ . ورقد فيها بالربّ في ٢٤ ك ١ ١٨٩٨

ولما درى الناس برته اقبلوا على المحبسة افواجاً . وكان يدفع بعضهم بعضاً بالمناكب ، توصّلا الى قبلة يديه ، آخذين أثراً من شعر لحيته وثيابه . ومرّت بضعة شهور على دفنه . ثمّ كشف عن جسده ، فاذا قشرةٌ ثخينة من العفونة تغطي وجههُ ويديه وصدره ، فرُفعت ، فبان جسمهُ سليماً محمراً كأنهُ مائتٌ حديثاً ، وسال من خاصرته دمٌ طريٌ ممزوجٌ بماء . فبُدلت ثيابهُ ، ووضع في نعش بغرفة خاصة تُتلى فيها الذبيحة الالهيــة . مضى على موته اربع وثلاثون سنة ، وجسدهُ ما زال ينضحُ عرقاً . وقد حيّرت الاطباء هذه المادة اللزجة التي يفرزها جسمٌ ترابيٌ فارقتهُ الروح من عهدٍ بعيد ، معلّلين ذلك بانها اعجوبة من الله كرَّم بها عبدهُ الامين .

وقد شرَّفهُ الله بالكرامات العديدة فاكسبته بها العلوّ في الحياة وفي الممات . منها في حياته : قــدّم اليه شابٌ من اهمج جنَّ جنوناً أدّى به الى الضرب والتجديف وتمزيق الثياب والمشي على الطريق عرياناً . فصلى على رأسه وشفاه . والشاب الآن في اميركا متمتّع بالعقل السليم بفضل الاب شربل . وزحفت في احدى السنين جيوش الجراد فحجبت بكثافتها نور الشمس ، وعاثت اتلافاً في المزروعات . فصلى الاب شربل على المـاء ، وكل موضع رُشَّ فيـه منهُ رحل

الجراد عنهُ وسلم من أذاهُ . اما المرضى المشرفون على الموت الذين شفاهم الاب شربل بصلاتهِ فكثيرٌ عددهم. وابرأ بعد مماتهِ يدًا يابسة لرجل من برجا. واجرى الله بشفاعتهِ آيات غير هذه كثيرة نتجاوزها اختصارًا(١).

الاب دانيال الحدثي

هو حنا ابن الخوري دانيال العلم من حدث الجبة . اسم امه مريم . اطلّ على الوجود في قرية الحدث ١٨١٥ ، وتنصّر فيها . ابتدأ في دير حوب ١٨٣٣ ، ولبس فيه الزيّ الرهباني في عيد القيامة ١٨٣٥ . ورفعه الى درجة الكهنوت المطران سمعان زوين في ٢٠ آب ١٨٣٨ . وتوفي مدبّرًا في دير مار سركيس وباخس قرطبا في ٢٧ تموز ١٨٨٤

عكف على الصوم والصلاة والزهد . وارتدى المسوح الشعريَّة الغليظة طيلة حياته الرهبانية ، فكانت تلتصق ببدنه التصاقاً لطول عهده بلبسها ، ولا تُنزع عنهُ الا والدم يسيل من جسمهِ فيقاسي منها آلاماً شديدة وهو محتمل . وأتقن حرفة الطبّ على رجل مصري ومارسها وبرع فيها . وله فيها حوادث مشهورة تثبت خبرتهُ يذكرها بعض الناس الى اليوم . وكان بالصلاة يشفي الداء احياناً اكثر منّا بالدواء . وكان هو الطبيب الخاص للبطريرك بولس مسعد . ترأس دير الحصن وتزحيًا ، وميفوق ، وانشأ محبسته ، وهو اول من دشّنها بافعال الامانة والنسك . وانشأ ايضاً دير سيدة النجاة في بصرما ، وانطوش بعلبك . اضطهده البعض فقابل محنتهم بالصبر والتسليم لله . ومنّ الله عليه بمعرفة الغيب . وأقيم مدبّرًا في الرهبانية لفضيلته وفطنته . وتوفي بدير قرطبا برائحة القداسة . وصنع الله على يده عجائب وافرة . وسنكتب عنهُ كلمة مطوّلة .

الاخت رفقا الريّس

هي بطرسيَّة ابنة مُراد صابر الشبق من حملايا (المتن) . استهلّت بالبكاء

١) راجع ترجمة حياتهِ التي نشرناها (المشرق ٣٠ [١٩٣٢] : ٢٨٩–٢٩٨)

في القرية المذكورة. دخلت جمعية المريمات سنة١٨٥٣، ثم انضمّت الى رهبانيتنا، وابتدأت سنة في دير القرن لراهباتنا اللبنانيات في ١٢ تموز ١٨٧١. ولبست فيه الزيّ الرهبانيّ في ٢٥ آب ١٨٧٢. وانتقلت منهُ الى دير مار يوسف الضهر ١٨٩٧. وقضت نحبها فيه في ٢٣ آذار ١٩١٤

بلاها الله بالعمى والكسح، وانفكت اعضاء جسمها. فاحتملت الآلام المرّة سنين عديدة بصبر عجيب. وكانت قدوة للراهبات بنقاء سيرتها. وما انقطعت عن المثابرة على الصلاة والعبادة والاماتة حتى ماتت ميتة القديسات. وجاء الله بشفاعتها بعجائب كثيرة كتبت في سجلات دير الضهر. وذاعت شهرتها، فاضحى رمسها محجاً للزائرين من انحاء مختلفة[1].

***

هؤلاء هم الرهبان الذين قيل عنهم: «رجال رحمة وبرُّهم لا يُنسى. اجسامهم دُفنت بالسلام، واسماؤهم تحيا مدى الاجيال» (سيراخ ٤٤: ١٠ و١٤)

---

١) اذعنا ترجمة حياتها على صفحات المجلة البطريركية لسنتها الخامسة، ثمّ طبعناها على حدة في ٧٩ صفحة، وروينا لها هناك احدى عشرة اعجوبة.

الفقه الاسلامي

تاريخه وتطوّراته

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٥

(تتمة)

لا رتب طقسية في الاسلام

ليس في الاسلام من اكليروس، ولا من رتب طقسية بمعنى الليتورجية. على أن هذا النصّ قد يخفى شيء منه بظاهر العبادة الدقيقة في اقامة الصلاة ومشاعر الحج، وبالقواعد الصعبة المتشعّبة الخاصة بالطهارة. وقد انفرد ارباب الطرق الصوفية، في اقامة حلقات الذكر، بشيء من الترتيب يقرب من التنظيم الطقسي في الحفلات الدينية، فهم يدخلون في ذلك الاغاني الروحية، والرقص، وتلاوة التسابيح الخاصة بكل طريقة من الطرق. ولكنهم لم يفوزوا، في ذلك، برضى العالم الاسلامي السنّي، ولم يسلموا من هزء بعض المفكرين. فقام ابو العلاء المعرّي، في القرن الحادي عشر، يعبث بهم ويتهكّم على طرق عبادتهم من رقص وغناء. ولا تزال السنّة حتى اليوم تنظر اليهم شزرًا معرضةً نوعاً ما عن اقرار هذه الاحتفالات. وهي لا تظهر اوفر ارتياحاً لانارة الجوامع والمآذن في الاعياد، او للطوافات الدينية زمن الاوبئة، او لاقامة مولد بعض الاولياء، او ما شاكل من الاحتفالات التي تضع شيئاً من التغيير والتجدّد في طريقة العبادة الرسمية المتتابعة على وتيرة واحدة.

هذا وان «الجمعة» الاسلامية لا تشبه في شيء سبت اليهود او احد النصارى؛ وهي لا تفرض الراحة الاسبوعية، ولا تقيد المؤمن الا بالذهاب الى الجامع كي يحضر صلاة الظهر الجامعة. انما ما يميّز هذه الصلاة من غيرها فكونها جامعة

اولاً ، ثم كونها تُقام بعد « الخطبة » الاسبوعيـة . وعلى « الخطيب » ان يلقي هذه الخطبة ، من اعلى « المنبر » ، باللغـة العربية حتى في البلاد التي لا يفهم ابناؤها لغة الضاد . ولم يكن في اوائل الاسلام الّا « خطيب » واحد في المدينة او الولاية . وكان حقّ الخطبة ، في اصله ، مختصاً بالخليفـة ، او بالوالي ممثله خارج مركز الخلافة . وعلى « الخطيب » ان يكون ، اثناء خطبته ، في حالـة « الطهارة » المفروضة . ثم تبدأ صلاة الجمعة ، ولا تكون « جامعة » علنية الا اذا كان عدد المؤمنين المصلين يبلغ الاربعين ، ولا يقوم الخطيب بمهمته الا في المعابد الكبيرة او « الجوامع » وهي خلاف المعابد الخاصة او الثنوية المدعوة « مساجد » . اما اقسام الخطبة فاهمها « الحمدلة » او حمـد الله ، و«الصلاة على النبي » ، و«الدعاء » للمؤمنين ابتداء بذكر الخليفـة او الامير الموجود . يلي ذلك مقتطفات من القرآن تتفاوت طولاً وقصراً .

ولم يتمكن المسلمون ، على دوبهم القيام بالخطبة مـدة القرون العديدة ، من ايجاد فنّ ادبي يقرب ، وان عن بعد ، من فنّ الخطابة او الوعاظة النصرانية . ذلك ان اسلوب الخطبة ظلّ مقيداً بالاسجاع ، وظلّ موضوعهـا محصوراً ضمن حدود مقرّرة ، فلم تخرج حِكمها ومواعيظها عن الافكار العامة والقوالب المبتذلة . بل كثيراً ما كانت تؤخذ اقسامها بالحرف من المجاميع الوعظيـة ، ولاسيما في البلاد التي لا حياة للغة العربية فيها . وقد أُلفت هذه المجاميع موافقـة لاقسام السنة بما فيها من حفلات الجمعة ، والمولد ، والاعياد المختلفة . ويجب ان نشير هنا الى مجموعة خطب ابن نباتة († ٩٨٤) التي ظلّت مثالاً لهـذا النوع من الانشاء .

اما اهم ما في الخطبة ، من حيث السياسة ، فالمقطع المشتمل على الـدعاء لصاحب البلاد ، ولسائر الامراء ، وعامة المسلمين . وذلك ان تاريخ الاسلام السياسي اعتبر دائماً حقّ « السكة » ، او ضرب النقود ، وحقّ « الخطبة » من مظاهر الاستقلال والسلطة . وان حذف اسم الخليفة او الامير من الخطبة يدلّ على اسقاط حقه ورفض الاعتراف بـه . كما ان ذكر هـذا الاسم يدلّ على التعلق به والخضوع لسلطته . وهذا سرّ ما كان يدفع امراء الاسلام في كل

عصر الى الاهتمام بذكر اسمائهم في الخطبة، وسرّ ما يدفع المسلمين الى ايلاء الخطبة هذا المرمى السياسي.

واذا فهمنا ان النظرية تعتبر الخليفة رئيساً زمنياً للاسلام العالمي ادركنا ان من حقه ان يُذكر اسمه في الخطبة. على ان الاحوال الظرفية لم تكن لتسمح دائماً في اقرار هذا الحق. فجرّ ذلك الى اختراع الخطبة «الصامتة» او الضمنية التي يلقيها الخطيب دون ان يذكر اسماً ما، كما لو كانت «وظيفة الخلافة شاغرة» بل يكتفي، قبل ان يذكر صاحب البلاد، بأن يدعو «لخليفة المسلمين» دون تصريح. على ان هذه العبارة اكثر خطرًا مما يوهمه الظاهر. فلا يمكن ان تدلّ الا على احترام سلطة سياسية عليا، لان الخلافة لاتتضمن مزية روحية، ولا دينية بحصر المعنى.

لا اكليروس في الاسلام

ان خلوّ الاسلام من نظام طقسي، ومن ترتيب للحفلات الدينية يجعله لا يشعر بضرورة الاكليروس، اي تلك الطبقة من رجال الدين المنظّمة على ترتيب متدرّج من اجل تنسيق طرق العبادة الالهية وتدريب المؤمنين فيها، على نحو ما نرى في النصرانية. وكذلك لا يرى الاسلام السني من الضروريات ان يُعتنى بالنفوس الاعتناء الروحي المعروف عند النصارى. فان الامانة في تطبيق اصول الشريعة تقوم، في نظره، مقام عناية الاكليروس. وهو يرفض كل الرفض اقرار التدريب الروحي الذي يستعمله شيوخ الصوفية في تهذيب مريديهم وتلامذتهم، مدّعياً ان هذه الطريقة شائنة بحقّ صلاحية الشريعة غير المحدودة، وبحق تطبيق السنة النبوية. ولا يمكن الاسلام — وهو يجهل مؤسسات الاسرار البيعية وعقيدة الفداء المسيحية — ان يشعر بوجوب نظام اكليريكي يقوم وسيطاً متدرّجاً ليستنزل على البشر النعم الروحية. وهو ابعد من ان يقرّ هذا النظام الكنائسي الوسيط الذي يراه مناقضاً لما يعرفه من حقوق الله اللامتناهية وسلطته المطلقة على جميع المخلوقات. واي حاجة للوسطاء، والله يعلم كل شيء، وقد خلق الانسان فكان «اقرب اليه من حبل الوريد» (القرآن ٥٠: ١٥)

وليس في النظام الاسلامي من مكان للاعتراف. اما الغفران فيناله الخاطئ حالًا، اذا ما طُبّقت عليه «حدود» الدين او القصاصات التي يفرضها القرآن على الزنى والسرقة وشرب المسكرات وما شاكل؛ وينال الخاطئ مغفرة خطاياه ايضاً بامانته في القيام «بالعبادات» كالصلاة، والصوم، والحج، وانواع الصدقة (القرآن ٢: ٢٧٣؛ ٩: ١٠٥) وبالايمان والندامة. ثم ان «الشهادة» تخلصه من العذابات الابدية في الجحيم.

ينتج من كل ما تقدم ان الرجال المقيدين بخدمة الجوامع كالامام، والخطيب، والمؤذن لا يحتاجون تعليماً دينياً مقرراً ولا تثقيفاً لاهوتياً خاصاً بمهنتهم بل يكفيهم ان يعرفوا واجباتهم وان يقدروا على القيام بها، كأن يعلموا اللغة العربية مثلاً. ومن الشيوخ والائمة من يخدمون الجوامع، ومنهم من يخدمون المؤسسات التقوية.

ثم ان رؤساء الطرق الصوفية يدعون انفسهم شيوخاً ايضاً. على ان هذه الالقاب لا تسيل اصحابها الحق بان يستأثروا برئاسة الصلاة. بل هذا حق مشترك بين جميع المؤمنين. فلكل منهم ان يؤمّ المصلّين على شريطة ان يكون من خيار المسلمين وان يعرف طرق الصلاة معرفة تامة. وكذلك لا يستقل احد بحق الختان او التطهير، بل يمكن اي حلّاق كان ان يجري تلك العملية.

وقد يرئس القضاة وائمة الجوامع حفلات الزواج، او «عقود النكاح» كما يقولون الا انهم يقومون بذلك بصفة كونهم موفدين من قبل السلطة المدنية لاقرار شرعية العقد، لا بفضل مزية خاصة بوظيفتهم التي لا تتصف بادنى صفة روحية.

ينتج من جميع ما تقدم ان ليس في الاسلام من مؤسسة نظامية تشبه الكنيسة، ولا من وجود للتدرج الاكليريكي، ولا وجود كذلك لسلطة مركزية تحافظ على الايمان وتدرّب المؤمنين.

الخلافة

وقد شاء بعض رجال السياسة من الاوربيين، وبعض من يروقهم الابتكار والاختراع من المستشرقين ان يولدوا من مدلول «الخلافة» هذه السلطة المركزية العليا. فبدل ان يفتشوا، قبل كل شيء، عمّا يعتقده الاسلام نفسه في «الخلافة»،

بـدأوا بالمقابلة بين النصرانية والعالم الاسلامي ، فجرّهم ذلك الى تشبيه الخلافة العثمانية بالحبرية الرومانية ، ومن ثمّ انالوا الخلافة نوعاً من الصلاحية العامة والسلطة الروحية العليا على الاسلام العالمي.

وكان من نصيب بعض السياسيين الاوربيين ان اقرّوا هذه النظرية الوهمية حتى انهم اثبتوها بادخالهم اياها في المعاهدات الدولية ، واولها معاهدة كوجوك ـ كاينرجي (١٧٧٤) ، معتقدين انهم بهذا العمل يسهّلون على الرأي العام الاسلامي قبول شروط روسية على تركية في ما خصّ اقتطاع بعض الولايات المأهولة بالمسلمين . فظنّ اولئك الساسة انهم يحسنون صنعاً بالتمييز بين سلطة السلطان الزمنية وسلطته الروحية ، وانهم يخففون من هياج المسلمين اذا ضمنوا لهم ان صلاحية السلطان الروحية تظل مهيمنة على تلك الولايات المقتطعة من السلطنة العثمانية . فيعيّن فيها من يريد من القضاة ، ويظل الخطيب يذكر اسمه في خطبة الجمعة . وهكذا وفّروا ، في ما بعد ، للسلطان عبد الحميد سبباً وهمياً يتخذه واسطة لينشر ، حتى في المناطق الاوربية ، دعوته الى الوحدة الاسلامية ؛ وليظهر امام اوربة مظهر المحامي الاعلى عن الاسلام العالمي . وهو اللقب الذي اضافه في الدستور العثماني سنة ١٨٧٦ الى اسم السلطان ـ الخليفة .

والحقّ يُقال انه كان من الصعب ان تُخترع نظرية ابعد من هذه عن روح الاسلام وتعليمه ، واشد خطراً على مصالح اوربة التي اقرّتها واثبتتها على حسابها . فان الاسلام السني لم يتصوّر قط الخليفة على الشكل الذي نتصوّر به رئيس الكنيسة من بابا او بطريرك . وهو ابعد من ان يسلّم له بميزة روحية او بسلطة عقائدية ، حتى انه لا يقرّ له حقّ الافتاء ، بصفة كونه خليفةً ، الا اذا كان قد نال قبل ذلك لقب الفقيه . والافتاء ، كما لا يخفى ، حقّ يناله كل فقيه نال درجة المفتي ؛ والاسلام يمنعه عن الخليفة اذا لم يكن له الا صفة الخلافة .

ولا يخفى ان مشكل الخلافة اثار كثيراً من الانشقاقات والبدع والحروب في الجامعة الاسلامية منذ اقدم عصورها . وقد أثّر تذكار هذه المنازعات في بعض مؤلفي المسلمين ، فاخذوا يهتمون باسبابها حتى توصلوا الى الكلام عن الخلافة كلامهم عن عقيدة دينية مقرّرة . على ان هؤلاء انفسهم كانوا يعتبرون

الخليفة حارساً ساهراً على باب الاسلام ، لا حبراً او رئيساً دينياً ، بل مدافعاً مدنياً عن الشريعة . هم يعتبرونه اليد المسلحة ، او مندوب الجماعة ، المكلف ان يحافظ على قواعد السنة كما ذكرها القرآن ، وان يدعو الناس جهاراً ، باحكامه العادلة ، الى احترام الشريعة . ونحن اذا اعتبرنا هذه الصفات ، نرى الخليفة الاسلامي يشبه ، نوعاً ما ، القيصر الروسي بالنسبة الى تنظيم الكنيسة الروسية السابقة ، او ملك انكلترة بالنسبة الى الكنيسة الانكليكانية .

ثم ان ليس للخليفة السني حق بالسلطة التشريعية القائمة كلها في نص الشريعة ، كما ان السلطة القضائية قائمة بمجموع العلماء . على ان من حقه ان يحدد صلاحيتهم في المواد التي لم تحددها الشريعة . وفي هذا الموضوع يظل تأثيره عظيماً اذ يتناول الجهاد ، والضرائب ، والتكاليف الادارية وما اليها . وهو نائب النبي ، ولكن في ما يخص الزمنيات فقط . وليس له من حق صريح ألّا بالسلطة التنفيذية . فيجب عليه اذاً ان يعمل على وحدة الاسلام ، وعلى انتشاره والمحاماة عنه في الخارج . ولما لم يكن له شيء من السلاح الروحي ، فهو لا يتمكن من القيام بهذا الواجب الا بالسيف . وقد يقوم الخليفة ، في سبيل الجهاد ، بالغزو والهجوم . فليس للفقه ، والحالة هذه ، ان يقيده بظهور المدافع الجامد عن وديعة لا يمكنه المحاماة عنها بالسلاح الروحي اذ لا وجود لهذا السلاح بين يديه . وهذا ما يقضي مبدئياً على جميع محاولات « العصريين » و« المجددين » من المسلمين الذين يرمون الى انشاء خلافة دستورية لا يكون لها السيادة المطلقة ولا حق الحرب والجهاد الحقيقي .

وهناك طائفة من السنيين المعتدلين يرغبون في اعتبار الخلافة اداة عليا دائمة من شأنها ان تقرّ وتحلل المؤسسات الشرعية كالصلاة ، والزواج ، وقرارات المحاكم ، وما الى ذلك . الا انهم اذا اتبعوا هذه النظرية ، لم يعرفوا كيف يحكمون على شرعية الصلاة في عصور الفوضى التي لم يكن فيها للاسلام خليفة ، وفي العصور التي كان فيها عدة خلفاء . زد على ذلك انه في الكثير من البلاد الاسلامية كان الناس يجهلون حتى وجود الخليفة العباسي المصري الذي كان اشبه بالخيال على مدة ما يزيد عن قرنين (القرن الرابع عشر — القرن

السادس عشر)، وكذلك جهل غيرهم وجود الخليفة العثماني على مدة طويلة. ولا يخفى ان الكماليين بعد ان نزعوا سلطنة خليفة استانبول، قرّروا الغاء الخلافة، لا اكثر ولا اقل.

وهنا نشير الى ان احدث النظريات في الخلافة وابعدها بحثاً في الاصول القديمة هي النظرية التي بسطها القاضي المصري سابقاً، الشيخ علي عبد الرازق، في كتاب سماه « الاسلام واصول الحكم » ونشره في القاهرة سنة ١٩٢٥ ثم تتابعت طبعاته — وقوام هذه النظرية ان الدين الاسلامي لا يهتم بشكل خاص من اشكال الحكم، بل يترك هذا الامر لاختيار المؤمنين. وليس للخلافة من اساس في العقيدة الاسلامية حتى ان القرآن لا يشير اليها بشيء من التصريح ولا التلميح. فهي من اختراع كتب الفقه التي اخطأت في التمييز في هذا الموضوع. ثم ان الشريعة قانون ديني محض فلا تفرض ادنى علاقة لازمة بالحكم الزمني. وان المحاكم الشرعية لا يمكن ان تدعي بشيء من الصلاحية الدينية. ولا فرق في شيء بين قضاتها والقضاة المدنيين. اما بعثة محمد فهي دينية محضة، حتى انه لم يخالج فكره قط ان ينشئ مثالاً ما للحكومة. وعليه فليس في الاسلام الا تشريع روحي، وعقيدة ايمانية، وقاعدة ادبية للسلوك. فهو لا يتصل في شيء بالسلطة الخارجية المكلفة تنفيذ احكامه.

وقد درس مجلس الازهر الاعلى في القاهرة هذه النظريات كلها فانتقدها، ورشق صاحبها بالجرم. وقد يمكن ان يُضاف الى ذلك نقد تاريخي ينفي ما يدعيه المؤلف من ان محمداً، بعد الهجرة، لم يفكر بالحكم ولم يصبح « رئيس حكومة ». والحقيقة انه اصبح هذا الحاكم الزمني حتى انه كاد يجحف بحق صفته النبوية. فكاد « الحاكم » يسيطر على « النبي ».

هذا وقد ولد الكتاب المذكور حول مشكل الخلافة، حركةً دامت بعض الزمن. ثم عرض بعضهم طريقة لحلّ المشكل اذ يُعقد مؤتمر اسلامي عالمي يبحث فيه العلماء بهذا الشأن. على ان جميع المحاولات، في هذا الموضوع، حبطت ولم تأت بشيء. فلم يصل العلماء الى نتيجة في القاهرة، ولا في مكة سنة ١٩٢٦، ولا مؤخراً في اورشليم سنة ١٩٣١.

الامثال والاساطير اللبنانية

المختصّة باشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

حزيران

هو في السريانية «حزيرون»، وفي العبرانية «سيوان» من «سيفانو» البابلي، واختُلف في معناه. يقابله من اشهر الفرنجة «جوان» من جونيوس اللاتيني رابع شهر من اشهر السنة الرومانية التي وضعها رومولس، وقد اسماه كذلك لسببين: اما حفظاً لذكرى الشبان من جنوده الذين كان يدعوهم «جونيئوس»، واماً تيمّناً باسم الآلهة «جونون» التي يدعوها اليونان «هيرا»، وهي ابنة زحل وامّ المرّيخ المشهورة في الاقاصيص القديمة بقرنها وحسدها.

كان الاقدمون يعتقدون ان الذي يتزوج في هذا الشهر يطول عمره، لان ايامه طويلة مشتملة على اطول يوم من ايام السنة وهو ٢١ منه.

***

وحزيران في التقاليد اللبنانية شهر «اليسر ووفاء الدين»، لان الملّاكين والمزارعين يبدأون فيه باستثمار مواسمهم، وبيع ما تنتجه ارضهم، واستغلال موسم القزّ الذي كان يُعدّ اهم المواسم اللبنانية واوفرها عائدة، لذلك اعتادوا جعل ١٥ منه موعداً لآجال سنداتهم، اذ يصبحون فيه قادرين على اداء ما يطلب منهم من دين. لكن هذه العادة اخذت تتلاشى بعد انحطاط هذا الموسم وتضاؤل منتوجه بسقوط اسعاره.

والدائن اللبناني قلّما كان في السابق يربط دينه بسند او رهن، او يقيم عليه شهوداً، بل كان يعطيه المدين سرّاً لئلا يجرح كرامته واحساسه، ومن امثالهم المشهورة في ذلك قولهم: «الدين سترة» وذلك كان لشدّة استمساكهم بفضيلة الصدق ورعاية اصول التعامل ومبادرة المدين الى وفاء دينه في الاجل

المضروب بلا مطل ولا تسويف، واهتمامه باتحاف الداش حيناً بعد آخر، ولاسيما في الاعياد والمواسم بمختلف الهدايا من موارده ومحاصيل ارضه ونتاج ماشيته، كأن يحمل اليه سلال الفاكهة والخضرة، وبراني السمن واللبن والعسل اقراراً بجميله، متلطفاً اليه بمثل هذه العبارات: «كثّر الله خيرك! وزاد المال بين يديك! وان وفيتك مالك فلست قادراً على ايفاء فضلك!»

وقد روى لي احد الشيوخ ان وجيهاً في عصره احتاج مالاً وراح يستدينه من متموّل، فوعده هذا به على ان يربطه بسند من توقيعه، فلبى الوجيه اخذ المال لقاء سند اعتبار ان ذلك يحطّ من قدره ويدلّ على الاسترابة بصدقه وصحة ضميره ويلحق به اهانة لا يرضاها مثله.

وفي حزيران تكون مواسم الفواكه والخضر لا تزال في معمعان رواجها في المناطق اللبنانية المتوسطة. ومن اقوالهم فيها: «في حزيرانك يا فلاح، فرّق الخوخ والمشمش والتفاح»، وكلمة «فرّق» تشير الى التقادم والهدايا التي يتبادلها اللبنانيون مما تنتجه ارضهم وماشيتهم، لان هذه المحاصيل لم تكن لتباع سابقاً في القرى البعيدة عن المدن الا في القليل النادر، وسبب ذلك توافرها لدى السواد الاعظم، ولان اللبنانيين قبل شيوع المهاجرة بينهم وتطوّر معيشتهم تطوّرها الطارئ الاخير كانوا باكثريتهم الساحقة منصرفين الى الحرث واستثمار الارض وتربية المواشي. فكان كل ما يفيض من محاصيلهم عن استهلاكهم الخاصّ يفرقونه هدايا على كهنتهم وزعمائهم وجيرانهم واصدقائهم واقاربهم لتفاهة قيمته وقلة الحاجة اليه؛ او يحملونه الى حيث يستبدلونه مقايضةً بمنتوج آخر مما ينقصهم وتمسّ اليه حاجتهم كأن يبدل الدبس بالزيت والتين بالزيتون والحنطة بالفواكه الخ...

ومما يؤيد شيوع عادة التهادي بينهم بيتان من زجلية قديمة تتناقلها السنتهم، وهما هذان:

من المشمش اللال اخذت اليوم سلتكم ومعها رسالة تسليني عن فرقتكم
ان جاء البشر يبشرني بسلامتكم لاعطيه روحي وافرّق من هديتكم

وهذا دليل على ان عادة تهادي الغلال والمحاصيل شائعة منذ القديم في لبنان.

وفي حزيران تنقف الطيور عندنا بيوضها وتربي فراخها منها : الدجاج ويجمعون للدجاجة الامّ ، ويسمونها «القرقة» ، البيض الحديث. وقبل ان تحتضنه يرونها تحت فخذ عازب وقايةً لها من « الكبسة » ويضعونها على البيض في مكان مظلم بعيد عن الناس لئلا يقع عليها ظل حامل او عازب او عازبة ، فتتغادر البيض فيفسد ويبطل نقفه.

ويؤثر عندهم العازب العفيف في امرار «القراق» تحت الفخذ او « فشخها » ، ومن كان مشهوراً في القرية من الاعزاب بعفافه قصدته النساء « بقراقهنّ » « ليفشخها » وحملنَ اليه الهدايا جزاء عمله.

ومما يروون في مسامرتهم بهذا الصدد: ان اسقفاً كان له شماس كثير الاخلاص والحسنات ولكنه كان حادّ الطبع ، فاذا احتدم غيظاً انطلق لسانه بالسبّ والشتيمة ، فكان الاسقف الجليل يحاول اصلاحه من نقيصته بشتى الطرق. وقد اراد مرةً زيارة قرى الابرشية وخاف ان تكون نقيصة شماسه حجر عثرة للناس فاوجب عليه كلما دخل قرية وضع حصاة في فمه حتى اذا ما أُغضب واراد الشتم تمنعه الحصاة عن الكلام فيصمت ، وهكذا يتعوّد الاحتمال ويخلص من عادته القبيحة ولا يعثر الناس بسببه. وخرج الاسقف مرة من احدى القرى بعد ان اقام فيها اياماً فودعه الاهلون الى آخر الخراج بالاجلال ، وبعد ان ابتعد وشماسه عنهم واذا بامرأة تجري وراءهما وهي تصرخ متوسلة الى المطران ان ينتظرها هنيهة لامر يهمها. فوقف الاسقف في مكانه وهو يحسب للامر الف حساب ، ثم وصلت المرأة واذا هي تحمل بيدها دجاجة فقالت للمطران : « ارجوك يا سيدنا ان تفشخ لابنتك العاجزة هذه القرقة قبل رحيلك فانك خير عازب عفيف دخل قريتنا. »

فساءت الاسقف غلاظة هذه المرأة وقلة ذوقها ، والتفت الى شماسه فقال: « ابصق الحصاة يا ولدي ! » ففعل الشماس بما امره الاسقف وانهال على المرأة بالسبّ والشتم ، واعادها الى القرية تتعثر باذيال الخجل والخيبة. وقد ذهبت كلمة الاسقف مثلاً عندهم فهم يقولون: « بصق فلان الحصاة » اي انه استسلم الى غضبه بعد دعة ، وجهر بما يكنه ضميره من الاسرار والخفايا.

ومن الطيور التي تفرخ في هذا الشهر الحجال فان صغارها تدرج فيه فيقتنصها الصيادون بالاشراك ويربونها في اقفاص. فاذا كبرت استعملوها في الاشهر الاخرى من السنة في صيد «اليقلوم» او القترة وهي الأكواخ الصغيرة التي يكمن فيها الصيادون للصيد، وذلك بان يضعوا الحجال الداجنة المحبوسة في الاقفاص على منصة قريبة من اليقاوم الذي يكمنون فيه باسلحتهم حتى اذا جاءت الحجال البرية على صوتها اطلقوا عليها نيران اسلحتهم فصرعوها. ويقولون في امثالهم: «تعبك على صوص حزيران لا يروح ضيعان». وفي الربيع الى آخر حزيران يستخدمون في صيدهم «السركة» وهي تحريف «السلكة» اي انثى الحجل، وفي الفصول الاخرى يستخدمون الحجال الذكور. والحجل كثير في حدود لبنان، وكان الامير بشير شديد الولع بصيده. وفي اللبنانيين خواصهم وعوامهم من كلفوا في فنّ الصيد كلفاً شديداً، واتقنوه كل الاتقان.

وفي بعض الجهات اللبنانية ينضج قسم من المزروعات في هذا الشهر فيبدأون حصاده، ويقولون في ذلك: «في آخر حزير، طلّع ابنك على الغمير» فحزير في اصطلاحهم حزيران، والغمير الحصاد، ويظن انهم اخذوا هذا اللفظ من كلمة «غمر» وهي بلغتهم العامية الذراع او ما يحمل عليها من قش وعشب ونحوه، والغمير في اللغة الفصحى الماء الكثير، ولعلهم ارادوا بالمثل المتقدم ما تأويله: «في حزيران اترك ابنك يذهب الى الغدران الغزيرة الماء للاستحمام فيها والابتراد بها من لوافح الحر التي تشتد في هذا الشهر» ولذلك يقولون ايضاً: «في حزير، تغلي المياه في البير»

ويقولون: «حرّ حزيران يعمل الحليب عيران» والعيران عندهم الحليب الخاثر ويسمونه «اللبن الرائب» ويقولون: «في حزيران تدخل الشمس برج السرطان، وتقول للحرّ اهلاً باعزّ الخلان»

وفي ٢١ حزيران ينتهي فصل الربيع ويدخل فصل الصيف ويقال في ذلك: «حزيران شهر البسط والكيف، اوله ربيع وآخره صيف.»

وفي ٢٤ منه يقع عيد مار يوحنا المسمى عندهم «حرّاق الدواليب» وقد سمي كذلك لاحد سببين: «الاول، حصول حادث كبير في احدى السنين يوم

هذا العيد احترقت فيه مجموعة من الدواليب الوطنية التي كان يحلّ الحرير عليها قبل شيوع معامل الحل على الطريقة الاوربية. فعدّ الناس ذلك الاحتراق قصاصاً لاصحابها لانهم اشتغلوا يوم العيد مخالفين بذلك شريعة البطالة، واخذوا يذكرونه تباعاً كل سنة في مثل يوم وقوعه مسمين العيد باسم «حرّاق الدواليب» وقد تنوقلت هذه التسمية عاماً بعد عام حتى وصلت الينا. الثاني اعتياد اصحاب الدواليب المذكورة منذ القديم مباشرة حرق حطامات مصانعهم ومخلفاتها في مثل هذا اليوم الذي ينتهي فيه زمن الحلّ لعدم الحاجة اليها، فادى ذلك الى تسمية العيد بذلك الاسم من باب تسمية الكل باسم الجزء.

وفي حزيران تنقى دوالي كروم العنب مما ينبت على جذوعها من النوامي لان هذه اذا تُركت تضعفها وتمنع العصارة المائية عن عناقيدها، ويسمى ذلك باصطلاح العامة «التفريك» ويقولون في ذلك: «فرّك كرمك في حزير، بيزيد قناطير.»

وقد تلد الهررة في هذا الشهر ولادة ثانية فتكون مواليدها ضعيفة البنية لانها في غير اوانها، وتقول العامة في هذه المواليد: «بين الحصرمة كل عمره متعلس» اي مهزول.

ويذكرنا هذا المثل بما اعتاده اللبنانيون من تأريخ حوادثهم بالمتشاهر عندهم من المواسم والاعياد كأن يقول احدهم: «سافر والدي الى اميركة ايام القز، ومات جدي نهار عيد الميلاد، وتزوج اخي على المرفع او الاحد الجديد» وما الى ذلك.

جولة في المجلات

اليوبيل الكهنوتي الذهبي لغبطة بطريرك الروم الكاثوليك – الشهر المريمي في الكنيسة البيزنطية – ناحية جديرة بالنقد من نواحي الآداب الغربية – الاسلوب اللاذع في الادب العربي.

اليوبيل الكهنوتي الذهبي لغبطة بطريرك الروم الكاثوليك

احتفلت طائفة الروم الكاثوليك باليوبيل الكهنوتي الذهبي لغبطة بطريركها الجليل كيرلس التاسع مغبغب، اي بمرور خمسين سنة على رسامة غبطته كاهناً. فعقدت له الحفلات الباهرة؛ وكانت اولاها وافخمها في مدينة القاهرة في ٣٠ نيسان الفائت. وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية، ونيابة القاصد الرسولي وجميع الطوائف الكاثوليكية من شرقية وغربية اكليروساً وشعباً. فكانت الحفلة الدينية الفخمة قبل الظهر حيث اقيم قداس حبري حافل تلي في اثنائه الرقيم البابوي البليغ الذي بعث به قداسة الحبر الاعظم الى البطريرك الجليل. وبعد الظهر عقدت الحفلة الادبية في ساحة المدرسة البطريركية، فتعددت التهاني نثراً وشعراً، وكان من جملتها قصيدة لشاعر القطرين خليل بك مطران. وقد خصت مجلة المسرة (شهر ايار ١٩٣٣) قسماً من صفحاتها الاولى بوصف هذا الاحتفال الفخم، وصدّرت عددها المذكور بغلاف جميل محلّى بالالوان تذكاراً احتفاء باليوبيل المذكور. فنحن نرفع لمقام صاحب الغبطة تهانئنا البنوية المكتنفة بالاخلاص والاحترام، راجين ان يديمه الله الاعوام المديدة ملاذاً للطائفة، وركناً للكثلكة في الشرق.

الشهر المريمي في الكنيسة البيزنطية

ومما لفت نظرنا في جزء « المسرة » المذكور بحثٌ اقتطفه حضرة الاب الياس اندراوس عن مقال للاب غرومل (Grumel) الصعودي في مجلة « اصداء الشرق » الفرنسوية وقد تناول فيه عادة الاحتفال بالشهر المريمي التي جرى عليها الغربيون في شهر ايار، وما يقابلها في تاريخ الكنيسة البيزنطية. قال (ص ٢٩٨):

لبعض الاقطار الغربية شهر موقوف لخدمة العذراء مريم وهذا الشهر هو

شهر ايار المعروف فيما بيننا بالشهر المريمي. على ان حفلات هذا الشهر غير رسمية بمعنى انها لا تعد جزءاً من الفروض البيعية الرسمية ولادخل لها في نظام الطقوس الكنسية وجلّ ما هناك انها عبادة خاصة انتشرت بين المؤمنين منذ عهد قريب[1] فرضيت عنها السلطة الكنسية. وحبذتها وهكذا انتشرت شيئاً فشيئاً حتى اضحت من العبادات العزيزة على المؤمنين في بلدان كثيرة.[2]

على ان الكنيسة البيزنطية قد عرفت مثل هذه العبادة منذ اجيال بعيدة. اذ انها قد وقفت لوالدة الاله شهر آب من كل سنة منذ القرن العاشر ولعله التاسع. فكان لابنائها فيه شهرًا مريمياً حقيقياً. وعندنا ان لهذا الشهر ميزتين كبيرتين على شهر ايار اولًا لاننا نحتفل فيه بعيد من اعظم اعياد العذراء مريم اي بانتقالها الى السماء في الخامس عشر آب، بعكس شهر ايار الذي لا نجد فيه ذكرًا لوالدة الاله. وثانياً لان احتفالات شهر آب فى الشرق البيزنطي هي جزء من الفروض البيعية التي رتبتها الكنيسة نفسها. اما صلوات الشهر المريمي عند الغربيين فهي عبادة خاصة لا دخل لها في الصلوات الكنسية الرسمية. ففضل الاولى على الثانية هو كفضل كل صلاة طقسية على الصلوات والعبادات الخاصة.

ويقسم الشهر المريمي عند الشرقيين الى شطرين. اما الاول منها فيمتد من اليوم الاول من شهر آب حتى اليوم الخامس عشر منه وهو وقت قطاعة وابتهال استعدادًا لعيد انتقال والدة الاله. واما الثاني فيشمل ايام وداع العيد

١) يرتقي الشهر المريمي الغربي الى اواخر القرن الثامن عشر لا غير. وقد اعترف به الكرسي الرسولي للمرة الاولى في اوائل القرن التاسع عشر في ٢١ اذار ١٨١٥ فهذه العبادة لا ترتقي اذن الى أكثر من ١٥٠ سنة ولم تنتشر فعلًا على النحو الذي نراه اليوم إلا في اواسط القرن التاسع عشر.

٢) لقد اختاروا شهر ايار باعتبار انه شهر الربيع والزهور. على ان هذا يصحّ في بعض البلدان كفرنسة وايطالية واسبانية وغيرها، على انه لا يصحّ في جميعها كما هي الحال في جميع البلدان الواقعة تحت خط الاستواء كاميركة الجنوبية والقسم الاكبر من افريقية وجزء كبير من بلاد الهند والهند الصينية الخ. فضلًا عن بلدان كثيرة غيرها شمالي خط الاستواء حيث يعدّ فيها شهر ايار من الاشهر الحارة. لذلك اعتمدوا اشهرًا اخرى لتكريم العذراء حتى في البلاد التابعة للطقس اللاتيني نفسه كما هي الحال في اميركة الجنوبية.

اي من ١٥ حتى ٢٣ منه وهو وقت فرح وتهليل فيه نعظم والدة الاله ونهنئها. وهكذا يخصصون الشهر كله على وجه التقرب لوالدة الاله الفائقة القداسة.

على ان مدينة القسطنطينية قديماً قد خصت فعلاً شهر آب بكامله لوالدة الاله شفيعتها وحامية ذمارها. فكان لها اذن شهرها المريمي كاملاً من اليوم الاول من شهر آب حتى ٣١ منه. ولا ريب في ان معظم الغربيين وعدداً كبيراً من الشرقيين انفسهم قد جهلوا هذه الحقيقة. لذلك رأينا ان نذكرهم بها.

يلي ذلك اشارة الى تاريخ انشاء هذه العبادة على يد الملك اندرونيكوس الثاني (١٢٨٣–١٣٣٨)، والى تنظيم الاحتفال بها في القسطنطينية اذ ذاك.

ناحية جديرة بالنقد من نواحي الآداب العربية

في دمشق مجلة جديدة بلغ عمرها الشهرين. ولكنها، على صغر سنها، تظهر استعداداً كبيراً لخدمة النهضة الفكرية في الشرق العربي. هي مجلة « الثقافة » التي يصدرها الاساتذة خليل مردم بك، وجميل صليبا، وكاظم الداغستاني، وكامل عياد، ولها من اسماء محرريها ضمانة كافية للقيام بهذه الخدمة، على ان تبقى غايتها « ثقافية » مجردة. وقد رأينا في أكثر موضوعاتها واحكامها تحفظ ضروري، ورغبة في التثبت جديرة بان تتبعها اكثر صحفنا العربية. وعلى هذا فاننا نرحب بالرصيفة الجديدة ونتمنى لها بكل اخلاص ان تعمل مخلصةً على رفع مستوى الثقافة السورية. ومما لفت نظرنا في العدد الثاني منها (ايار ١٩٣٣) آراء في الآداب العربية للشيخ عبد القادر المغربي رمى فيها الى تصوير ناحية من نواحي نقد هذه الآداب، فوصف موقف بعض المعاصرين من اللغة ومن اساليب الافرنج، فقال (ص: ١٢٠):

من كتابنا المعاصرين طائفة حديثة النشأة اتخذوا لانفسهم طريقة جديدة في الكتابة ترتكز غالباً على الادب الافرنجي. وتحتذي مثاله في الاسلوب الانشائي.

وانا ارى ان هذا لا يضر آدابنا العربية بل هو اقتباس او تطور طبيعي في لغات الامم وآدابها: فان بعضها يقتبس من بعض اساليب كما يقتبس الفاظاً.

لكن هؤلاء المجددين افرطوا في انتحال أساليب الافرنج واكثروا الغض من اساليب كتابنا الاقدمين. الى حد ان عطلوا — او كادوا يعطلون — قواعد اللغة العربية: فهم لا يبالون نحوها ولا صرفها ولا يتكلفون عناء مراعاة هذه القواعد في خطبهم وكتاباتهم. بل ذهبوا الى ابعد من هذا: فزعموا ان كل

كلمة عربية مجها ذوقهم وجب أن تموت ويخلفها من كلمات الاعاجم وتعابيرهم ما شاءوا وأحبوا.

ثم لخّص آراء الادباء الاقدمين في البلاغة، واختلافهم في اسنادها الى حسن اللفظ او الى جمال المعنى، وكيف كان الجاحظ ومن اليه يحتون خصوصاً بالمعاني وقد لا يقيمون للالفاظ وزناً. الى ان كان العصر العباسي الثالث فسادت البلاغة على اسس اللفظ المختار والمبنى الانيق زمن ابن العميد والصاحب ومن نحا نحوهما، فتجاوزوا اسلوبها الى المبالغة في التنميق اللفظي حتى

اصبحت الكتابة فيه صناعة لفظية محضة، لا تعبر عن نفسية الكاتب ولا تميز شخصية اديب عن شخصية اديب آخر. وانما اصبح كل من كتب تقريباً (فنوغرافاً) يحكي لنا صدى افكار المتقدمين ويسرد علينا تعابيرهم بتغيير طفيف.

وهذا ما حمل ادباء الافرنج على نقد آدابنا العربية بالجملة، والازراء بكتاباتنا الادبية من دون تفريق، حتى قالوا: انها الفاظ ترن وجعجعة من دون طحن.

على ان الكاتب يقف موقف الوسط في الحكم فيقول (ص ١٢٣):

ولا نسمح لانفسنا ان نقول: ان حسن الالفاظ لا شأن لها في البلاغة والفصاحة وانما نقول: ان الافراط في التأنق ومراعاة الصناعة اللفظية يؤدي الى التكلف والاحالة وان الاهتمام بانتقاء الالفاظ والحرص على حشرها في الكلام يلهي السامع عن تعقل المعاني فيضطرب فهمه. وتنقطع سلسلة تفكيره. ويفقد الكلام قوة تأثيره. واذا ضاع التأثير ضاع كل شيء.

وينتقل من ذكر هذا العيب العام الى عيب خاص طالما انتقده على الادب العربي ادباء الاعاجم من افرنج وترك، فدلّوا على فساد الذوق في طائفة كبيرة من اربابه لاستعمالهم «مجازات وكنايات واشارات لها معان يقبح ذكرها، وتنفر النفس من تفسيرها.» فيشير الى مقال كتبه في الموضوع نامق كمال الاديب التركي في اواخر القرن الماضي، وشاء ان يتنذر عن هذه المساوئ فالصقها «بالآداب لا بالادبيات»

كأنه يريد ان يقول: يجب ان نلصقه بآداب الشاعر لا بادبيات اللغة فنقول مثلاً: ان العيب في امرئ القيس وابي نواس وعبد الله بن حجاج: فهم

المسؤولون عن قبح قولهم وليس المسؤول عنه (الادبيات) العربية فهي بريئة من العيب وليست مسؤولة عن عيب غيرها.

قلنا : واذا كان هذا حكم اصحاب الذوق في مجازات واشارات استندت في اصلها الى معان قبيحة ، فما يكون حكمهم في تلك البذاءات الصريحة والاوصاف الشائنة وما اليها من اساليب المجون والاحماض التي لا يكاد يخلو منها كتاب عربي قديم حتى كأن الذين اغنوا آدابنا بآثارهم لم يلتفتوا فيها الى النساء المهذّبات، ولا الى الناشئة في طور التثقيف .

الاسلوب اللاذع في الادب العربي

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر ، فاننا نشير الى مقال مفيد للاديب طاهر الطناحي في جزء الهلال الاخير (ايار ١٩٣٣ ، ص ٩٤٢-٩٤٧) قال فيه بين الاسلوب السوقي المستند الى الاقذاع في الذم والتصريح بالسباب الذي يأخذ به كثير من المتناظرين من قدماء ومحدثين، وما دعاه بالاسلوب اللاذع الذي ينال من الخصم عن طريق التهكم والهزء ، على عفاف في اللفظ وترفع في التعبير . قال ، بعد ان انتهى من تحديد الاسلوب الاول والتمثيل عليه ، آخذاً بوصف الاسلوب الثاني (ص ٩٤٤) :

ويمتاز هذا الاسلوب بعفة الالفاظ ونزاهتها عن السخف والابتذال ، ويقوم فيه التلويح مقام التصريح ، ويلعب صاحبه بفكر القارئ فينقله الى جانبه ، ويجذبه الى شيعته — دون ان يحس بأنه يتعسف به ، او يتحامل على خصمه — ويجعله يقتنع كل الاقتناع بأنه لا يدعو الى نفسه وانما يدعو لوجه الفن وللانصاف وحده بلا منافسة ولا ضغينة او حقد كمين ، وهو في الوقت نفسه ينال من خصمه ابلغ منال.

نرى ذلك الاسلوب في غير اثر واحد من الآثار الادبية التي وقع فيها الخصام بين بعض الادباء السابقين . ومنه ما كتبه ابو سعيد محمد بن احمد العبيدي صاحب كتاب الابانة عن سرقات المتنبي في الرد على انصار هذا الشاعر الكبير . واني انقل اليك بعضاً من هذا الرد ، وفيه صدق ما اقول عن هذا الاسلوب اللاذع الذي يجرح بلا سكين . قال ابو سعيد :

« ولست — يعلم الله — أجحد فضل المتنبي وجودة شعره وصفاء طبعه وحلاوة كلامه وعذوبة الفاظه ورشاقة نظمه ، ولا انكر اهتداءه لاستكمال شروط الاخذ (!) اذا لحظ المعنى البديع لحظاً ، واستيفاء حدود الحذف (!) اذا

سلخ فكساه من عنده لفظاً (!) ولا اشك في حسن معرفته بحفظ (!) التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه ، وايراد التجنيس الذي يملك النفس مسمعه ، و«الحاقه» في الاحكام ببعض من سبقه ، وغوصه في الفهم على ما يستصفي ماءه ورونقه (!) وسلامة كثير من اشعاره من الخطأ والخلل ، والزلل والدخل ، والنظام الفاحش الفاسد ، والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستشنع ، واللحن الظاهر المستبشع (!) واشهد انه عن درجته غير نازل ولا واقع ، واعرف انه مليح (!) الشعر غير مدافع، غير اني مع هذه الاوصاف الجميلة (!) لا ابرئه من سرقة . . .» الى ان يقول : « ولا اطعن في دينه ونسبه ، ولا اذمه لاعتقاده ومذهبه . وكيف يسوغ ان اثلبه لالحاده (!) ، واعيبه لسقوط آبائه واجداده (!) وانا اتحقق ان اكثر من يستشهد باشعارهم المشركون ، والكفار المنافقون . . . والادب يجعل الوضيع رفيعاً . . . » ! !

فانظر كيف بلغ ابو سعيد من ذم المتنبي هذا المبلغ في غير فحش ولا إقذاع ولا استكراه من سباب كسباب السوقة وشتائم كشتائم السفلة ، فانزله عن مكانته واستطاع ان يتهمه بهذه التهم ويسند اليه من اوصاف النقص ما تتملل منه عظام المتنبي في قبره . ومع ذلك فلم يسمعك سباباً ساقطاً ولا قولاً مبتذلاً ، ولا الفاظاً مستكرهة كما تفعل السوقة من الناس .

وختم مشيراً الى ضرورة الاخذ بهذا الاسلوب المذهب المطهر في عصرنا :

وانت اذا قارنت ذلك بما كتبه اديب من ادباء العصر في هذا المقام يرد على اديب آخر اتهمه بالسرقة من كتبه ، لوجدت بين الاسلوبين بوناً شاسعاً . ولا نريد ان نعيد شيئاً مما نشر في هذا الصدد صوناً لنا من نقمة بعض الادباء ، وتنكباً عن طريق السخمة والشحناء ، وانما نريد ان نقول انه لينقصنا في هذا العصر ان ندرس الاسلوب اللاذع ، وان ننقيه من ادرانه ، وان ننحو فيه ناحية تتفق وتقدم الحياة العقلية في نهضتنا الحديثة ؛ حتى يخلص هذا الاسلوب من السخف والشتائم السوقية التي تشوهه وتنزل به من اوج الفن الى درك اللغو من الكلام .

شذرات

اليوبيل الذهبي للمعهد الطبي الفرنسوي

مرَّ خمسون سنة على انشاء المعهد الطبي الفرنسوي التابع لكلية القديس يوسف فاقامت ادارته حفلات شائقة من جملتها الحفلة الكبرى في ردهة الكلية التي قام في اثنائها رئيس الجمهورية فقلّد الاب شانتور رئيس المعهد، ورئيس اليسوعيين العام في سورية، وسام الاستحقاق اللبناني من الدرجة الاولى بعد ان قرأ المرسوم الصادر في هذا الشأن،وقد جاء فيه:

« تولى رئاسة كلية القديس يوسف فرئاسة الاباء اليسوعيين فرئاسة المعهد الطبي الافرنسي، فلبث سحابة اربع عشرة سنة منقطعاً بلا ملل ولا فتور الى تربية الناشئة اللبنانية في الصفوف الاعدادية والثانوية والعالية. مظهراً في هذا السبيل من سمو الفكر واستقامة المسلك والتجرد التام ما يعدّ فخراً لفرنسة وللرهبانية اليسوعية،ومبرهناً على حزم راسخ لا يتزعزع في تكميل وسائل النجاح واسباب التجميل والتحسين لمعهد الطب ومستشفى اوتل ديو دي فرنس. وبذلك واصل العمل الباهر الذي بدئ به في لبنان منذ مئة عام بعناية اخوانه اعضاء الرهبانية اليسوعية ولاسيا الاب كاتن الذي لا يزال ذكره حاضراً في جميع الاذهان. فاستحق شكر لبنان. »

وفي الحفلة نفسها قلّد نيافة القاصد الرسولي الدكتورين كلميت وكوتار، وسام القديس غريغوريوس الكبير. ثم القيت بعض الخطب. وقام فريق من طلاب المعهد بتمثيل رواية غنائية وضعها اساتذتهم، فاتت دليلاً محسوساً على دقة الملاحظة وحسن الذوق. فنهنئ المعهد العزيز متمنين له مزيد الازدهار، قائلين مع واضعي برنامج الاحتفال « الى الملتقى بعد مائة سنة ان شاء الله! »

التذكارات القرنية اللبنانية

سبق لي ان نشرت، بناء على اقتراح بعض الاصدقاء، في عدد شهر آذار ١٩٣٣ الحالية من المشرق مقالة تحت العنوان المبيّن اعلاه، كما كنت قد نشرت في مجلة المشرق ذاتها، منذ السنة ١٩٣٠، مقالات تتعلق بتذكارات تاريخية قرنية، ولم يتعرّض احد للانتقاد عليها. ففي سنة ١٩٣٠ تكلمت عن مرور

مائة سنة على فتح الجزائر ؛ وفي تشرين الثاني ١٩٣١ اسهبت في تاريخ تجديد الرهبانية اليسوعيـة في سورية ولبنان ؛ وفي صيف ١٩٣٢ كتبت مقالـة عن التذكارات القرنية لتلـك السنة ؛ واخيرًا في آذار ١٩٣٣ حصرت البحث في التذكارات القرنية اللبنانية. وما كان اشدّ استغرابي لمّا ارسل لي احد الاصدقاء وانا طريح الفراش ، عدد مجلة المنارة الصادرة في جونية عن شهر نيسـان من السنة الحاضرة وفيه ما فيه من الانتقاد والمغامز بما يتعلق بمقالتي السالفة الذكر.

لم استغرب الانتقـاد لان لكل رأيه ، ولان العصمة لله وحده . ولكني استغربت طريقة الانتقاد ، وقد تجاوز صاحب تلـك المقالة جميع قواعد آداب النقد المعروفة. فانه ، رعاه الله وهداه ، قد اغفل — خلافًا لهذه الآداب — ان يُرسل لي عددًا من مجلته لاطلع على انتقاده. ولكن كيف يُطلب منه المحافظة على قوانين هذه الآداب ، وهو لم يجسر ان يذيّل مقـالته بامضائه الكريم ليعرف القرّاء مقدار مركزه من المعارف التاريخية ؟ فهو يتستر ليتمكن من رمي المنتقد عليه بسهام لومه بدون ان تعرف شخصيته . وعلى معرفة شخصيته تتوقف معرفة ما اذا كان يجب الالتفات الى انتقاده ام لا ؟ ويشبه هذا ما جرى بين المصوّر ابيل (Apelle) اليوناني الشهير ، والاسكافي .

اما وقد اراد حضرته ان يكون انتقاده مهلًا مثل اسمه فنحن لا نضيع وقتنا بالردّ على ما كتبه ، وهو احقّ من مثالنا بان يدعى « غناء بالطاحون » . ولو الّم حضرته بشيء من واجب النقد لما اتخذ في كتابته نغمة الاستاذ الذي لا يُراجع ، ولهجة المعلّم الذي لا يغلط ، ولاجتهد اولًا في اتباع اداب الجدال ، وثانياً في اظهار ما هو غلط في مقالي .

ثم ما كنت افهم السبب الذي ينيله من الحق بالانتصار للمارونية او للدويهي ، ما لا ينيلني اياه ، وهذا ماضي اجدادي وكتاباتي الشخصية منذ ثلث قرن تشهد لي ؟

وما كنت افهم الموجب للكلام في موضوعنا الحاضر عن قداسة البطريرك الدويهي ؛ ومن الذي تعرّض لهـا ؟ وسواء أكان الدويهي اقـدس بطاركتنا واعلمهم ام لا ، فاذا يفيد ذلك ؟ وهل تنفي قداسته الاغلاط التاريخيـة التي ارتكبها ؟ وهل في طلب اصلاح هـذه الاغلاط ، واقتراح تأليف تاريخ مدقق

الطائفة انقاص من فضل الدويهي وخدماته للعلم والتاريخ ؟ الا يرى القرّاء الكرام ان امثال هذه المقالة الانتقادية هي « التي تجعل كتابة التاريخ في بلادنا مصابة بعقم اشبه بثبات (كذا) الموت » ؟

واني اختم هذه الكلمة باحالة قرّاء المشرق الكرام ومنتقدنا المتستر الى الحواشي الواردة في ذيل الصفحات ٢٩٦ الى ٣٠٢ من كتاب « لباب البراهين الجلية عن حقيقة امر الطائفة المارونية » للطيب الاثر المطران يوسف دريان النائب البطريركي في مصر وقد انتهى من « تحبيره في العشرين من شهر تشرين الاول ١٩١١، في كرسي ابرشية دمشق، بجبل لبنان » — والى كتاب سيادة دريان ايضاً الاخير المعنون «نبذة تاريخية في اصل الطائفة المارونية واستقلالها في جبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن» وهو مطبوع في المطبعة العلمية في بيروت، وينتهي الكلام فيه الى رجوع البطريرك الحويك الى بكركي في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٢٠، بعد الاستقبال الرسمي الذي اقامه له الجنرال غورو . وانني اخصّ بالذكر الحواشي الواردة فيه، في ذيل الصفحات ٥٤ الى ٦١، فيرى فيها الاغلاط التي ارتكبها البطريرك الدويهي والتي لا تحصى ولا تتفق مطلقاً مع اي تاريخ من تواريخ العالم، ولا يقبل بها العقل، حتى اضطرّ الاديب الدمشقي حبيب الزيات الى تسميتها « باساطير الموارنة » . واكتفي باعادة الاسطر الستة الاخيرة من تلك الحاشية الطويلة لانها تنطبق غاية الانطباق على حالتي مع هذا المنتقد المتستر الكريم، قال رحمه الله :

« هذا ونحن نعلم ان بعض الناس من الموارنة لا يتلقون هذا الرأي الجديد الا بالاستخفاف وينسبون قائله الى الجسارة والمطاولة على علمائهم الاعلام . ولكن الحقيقة لا تخشى لومة لائم وهي لا بدّ لها من ان تظهر بالاحتكاك . ومعاذ الله ان نقصد ما قد يتوهمونا به وانما القصد كل القصد ان نخلّص تاريخنا من بعض الشوائب بقدر الامكان ونفتح باباً لبحث اهل النظر الصافي فيه، وكم ترك الاول للآخر . » (آه)

وفي الختام اتعزّى عن انتقاد حضرة الاستاذ المتستر بوجودي من رأي واحد مع فقيدي الدين والعلم الطيبي الاثر المطرانين يوسف دريان صاحب التأليفين المذكورين وبطرس شبلي الوارد ذكره في تلك الحواشي السابقة الذكر، رحمهما الله !

بيروت، في ٨ ايار ١٩٣٣ سليم الدحداح

مطبوعات شرقية جديدة

Ignatius Errandonea s. j. : Epitome grammaticae graeco-biblicae. *in-8° de 116 pp. Rome, Université Grégorienne*, 1933.

مختصر غراماطيق اللغة اليونانية في الكتاب المقدس

كان من طرق الاصلاح في معاهد الدروس اللاهوتية العليا ان ادخل في برنامج المواد درس اللغة اليونانية المستعملة في الكتاب المقدس . فكان من ثمَّ على علماء هذا الفرع ان يؤلفوا الكتب التعليمية في ذلك . وهو ما دفع الاب ارّاندونيا ، الاستاذ في الجامعة الغريغورية في رومة ، الى وضع هـذا الكتاب وقد توفق الى جعله كاملًا تقريباً دون ان يتجـاوز بحجمه ما يمكن للطلاب ان يخصّوا به من الوقت مع ما عليهم حفظه من الدروس المختلفـة . فاستحق الثناء والتهنئة . على انه اشار في المقدّمة الى ان اللغة اليونانيـة في الكتاب المقدّس يشوبهـا كثير من التراكيب العبرية (وكان من الواجب ان يقول : السامية) . ولكنه لم يشر الى مواضع هذا التأثير العبراني في الكتاب . وهي ثلمة على المعلّم ان يسدّها بتعليمه الشفهي .

ب . م .

John L. La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 to 1291. 1 *vol. in 4° de XXVIII + 293 pp. Prix: dollars 4, 50. The Mediaeval Academy of America, Cambridge, Massachusett.*

الملكية الاقطاعية في مملكة اورشليم اللاتينية من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٢٩١

كتاب جميل يظهر ، من حيث الطبع والتجليـد ، بمظهر غاية في البساطـة والاناقة معاً . وهو يؤلف المجلد الرابع من مجموعة «اكادمية القرون الوسطى» . وضعه استاذ شاب كان قد اختار موضوعاً لاطروحته درس الشرق اللاتيني ، فقاده ذلك الى استخدام كل ما كان يمكنه من الدروس ، وما يصل اليه من المعلومات ، وما اطلع عليه اثناء رحلة الى الشرق ، في سبيل متابعة هذا الدرس . حتى قدّم لنا اليوم هذا البحث النفيس في «مملكة اورشليم اللاتينية» التي تظهر لطالب التاريخ مثالًا وحيدًا من نوعه للملكية الاقطاعية . يبدو ذلك بانفصالها

عن التطور السياسي الجاري في اوربة اذ ذاك ، وبقصر حياتها ايضاً . وقد دقق المؤلف في درس موضوعه ، فعرض تطوّر نظام تلك الملكية في فصول وافرة الاطلاع والمستندات ، ثم انتقل الى وصف مظاهر الادارة ، خاتماً كتابه بدرس بعض العلاقات التي كانت بين ملوك اورشليم وبعض رجال السياسة في داخل مملكتهم . وهو يستند في اكثر ذلك الى الوثائق والسجلات العديدة التي حفظت كثيراً من مؤسسات النظام الاقطاعي ؛ ويستند ايضاً الى معلومات قليلة عثر عليها في اقوال مؤرخي العرب كابن جبير ، وأسامة ، وبهاء الدين ، ولا تفوته الاشارة الى ان هؤلاء لم يعرفوا شيئاً مهماً عن النظام الداخلي لمملكة الصليبيين . انما انحصرت اكثر معلوماتهم بالشؤون الخارجية ، وهي تخرج عن موضوع الكتاب الحالي .

ك . ب . هيوز

Honnorat (Michel) : Démonstration de la parenté des langues indo-européennes et sémitiques. 1 *vol. in 4° de* 398 *pp. Paris, Geuthner*, 1933.

اظهار القرابة بين اللغات الهندية - الاوربية واللغات السامية

اننا لنستغرب ان تطبع مكتبة گوتنر الاستشراقية المعروفة مثل هذا المجلد الكبير الحجم العديم القيمة حتى انه ليعدّ بين الآثار المولودة ميتةً . بل نحن نرى من الصعب معرفة ما اذا كان المؤلف — الذي لا يظهر على شيء مهمّ من الاتصال باللغات السامية — لم يشأ الهزء بغير المطلعين من القراء من الذين يسرعون الى انفاق ٦٥ فرنكاً ثمن الكتاب . نقول هذا لا لان الموضوع تافه بحدّ ذاته حتى لا يستحق البحث العلمي ، بل لطريقة الخوض فيه ، وما قول القرّاء بامثال هذه المقابلة التي يقوم بها المؤلف بين اللفظة العبرانية «اتسم» ومعناها «العظم» واللفظة الزندية « استي » ، والسنسكريتية « أستي » ، واليونانية « اوستيون » الى غير ذلك . وهو يعبّر في ذلك عن الصاد العبرية بالمقطع ts ، اما في ما خصّ اللفظة العربية « عظم » فيكتبها « كزام » و«أوزام » !

على ان ما يؤسف له كل الاسف هو ان المجلد الثاني من هذا الكتاب المحتوي على اظهار القرابة بين اللغات الحامية والشومرية واللغات الآرية - السامية

قد اصبح قيد الطبع . والسلام !

F. A.-L. des Ecoles chrétiennes : Géographie du bassin du Nil. Egypte et Soudan Anglo-Egyptien. 1 *vol. in-8° de* 98 *pp. avec illustrations, dessins et cartes. Paris, Delagrave.*

جغرافية وادي النيل : مصر والسودان الانكليزي – المصري

هو كتاب ألف لفائدة طلاب البكالورية المصرية ، الا انه يفيد جميع من يهمهم الاطلاع على احوال مصر . يقسمه المؤلف خمسة اقسام خاصاً الاول بجغرافية مصر الطبيعية ، والثاني بعصر السياسية والاقتصادية . ويفرد للسودان القسم الرابع . ويخصّ الخامس ، وهو اوفر الاقسام ابتكارًا ، بالجغرافية التاريخية دارساً اسباب ما احاط بقارة افريقية من الغموض حتى انها لم تُكتشف مجاهلها وتدرس مناطقها الا مؤخرًا ، مشيرًا الى اكتشاف ينابيع النيل ، وما قام به روّاد السودان وصحراء ليبية . ويختم بذكر التأثير الاقتصادي الناتج عن وجود البحر المتوسّط. ج . ل .

E. L. Guernier : L'Afrique, champ d'expansion de l'Europe. *in-8° de XIV* + 284 *p.* 14 *cartes et graphiques. Prix :* 25 *fs. Paris, Librairie Armand Colin.*

افريقية من حيث انها مجال لاتساع اوربة

لايخفى ان مناطق افريقية تكاد تكون بجملها تحت تأثير اوربة السياسي . وها ان الكاتب يرمي الى جعلها تحت تأثير اوربة الاقتصادي ايضاً ، غير مهمل الكلام عن واجب اوربة في تثقيف تلك الشعوب تثقيفاً اخلاقياً قبل ان تدخل عليهم مدنيتها المادّية ، مما يدلّ على الشعور المحمود بان للبشر ، حتى السودان منهم ، قيمةً ترفعهم عن مستوى الآلات والمكنات . والمؤلف يعتقد ان بمقدور افريقية قبول عدة ملايين من مهاجري اوربة ، وكذلك يمكنها ان ترفع مبلغ تجارتها العام من ٧٥ مليارًا الى ٤٠٠ مليار . على ان المطالع يسأل نفسه هل بمقدور اوربة ، وهي على نقص متواصل في عدد المواليد ، ان تقوم بمثل هذا الجهد ؟ وهل بمقدورها ان تصل الى الاتفاق الذي يرجوه المؤلف باخلاص وحماسة؟ هذا وفي الكتاب عدة خرائط ورسوم مفيدة ، كما ان فيه نظرات مبتكرة كفكرته في « الاضلاع الاقتصادية » التي يجب ان تكون موازية لخطوط

العرض الجغرافي ، فتسهل على المزارعين انتاج المحصولات المتدرّجة من التي يتم بعضها البعض الآخر.
ج.ل.

خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا

بقلم حبيب زيات

[هدايا المسرّة : وثائق للكرسي الملكي الانطاكي : ٣] ٣٠٨ ص. متوسطة — مطبعة القديس بولس في حريصا ، ١٩٣٢

لا ازال اذكر ما احدثه من التأثير الحسن ، لنحو خمس وثلاثين سنة ، بحث نشره المؤلف بعنوان « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » . فقد كان يظهر فيه فضل الناقد المطلع ، والباحث الدائب ، والرجل الجريء الذي لا يخاف قول الحقّ ، ولو ادّى الى معاكسة آراء اصدقائه واحكامهم السابقة . مرّت الايام والسنون ولم تزد هذه الصفات الا رسوخاً ونضجاً ، كما ظهر لقرّاء « المشرق » في هذه السنوات الاخيرة ، وهم يطالعون مقالات الاديب حبيب زيات.

وها هو يهدي الينا اليوم بحثاً نفيساً في مزار صيدنايا الشهير : جال فيه في تاريخ تلك المنطقة وكنائسها ، واديارها ، واساقفتها ، وتأثير اللغة السريانية فيها حتى منتصف القرن السابع عشر. قام بذلك بعد ان اطلع اطلاعاً واسعاً ، آخذاً بالنقد الدقيق والجهد الدائم ، على جميع ما ذُكر عن صيدنايا في الكتب المطبوعة. وكان من فطله ان قرن بذلك درس المخطوطات المتعلقة بالموضوع في المكاتب العامة والخاصة في الشرق واوربة كباريس ورومة وغيرهما ، فاستفاد منها ما لم يسبق لاحد ان اطلع عليه ، ونشر في كتابه بالرسم الزنكوگرافي كثيراً من تلك الوثائق.

وقد طلب اليَّ ان انبهه على ما قد يكون سها عنه في هذا البحث الذي اعتقد انه الكلمة النهائية في الموضوع حتى ليصعب ان يُضاف اليه شيء.. واني، نزولاً عند رغبته ، اشير الى انه قد ذكر في الصفحة ٢٩٥ اربعة مؤلفات عربية كانها مطبوعة في ليون (فرنسة) : والصحيح انها مطبوعة في ليدن (هولاندة) . وقد يكون جرّ المؤلف الى هذا الخطأ الاسم اللاتيني Lugdunum الذي كان يطلق على المدينتين.
م. ل.

الامراض المُعدية في الاقطار العربيّة

بقلم الدكتور حبيب صادر

٢٩٦ ص متوسطة – مطبعة صادر بيروت ، ١٩٣٣ – الثمن ٧٥ غ . س .

ذلك عنوان كتاب جديد لكنه ذو شأن عظيم للناطقين بالعربية بل للغة العرب ، ألفه الحكيم حبيب صادر ، غيرةً منه نبيلةً على بني أُمتهِ .

أجل انه لذو شأن عظيم لانه يبحث في أذيع آفات البشرية وأضرّها بحثاً وافياً عملياً . وقيمته تكبر باعتبار ما يصبو اليه المؤلف من نشر المناعة والوقاية فالسلامة . فله منا شكرٌ خاصٌ في نزوله ميدان الصحة ، وقد طالما نادينا له الفرسان واعلنّا الجهاد .

واي بلاد احقُّ بمثل هذه المباحث من هذه الاقطار ، وكلها وقعت في اقاليم حارَّة : والحرارة أهم الشروط لنمو الجراثيم وتوالُد الحشرات التي تنقل العدوى ، علاوةً على ما ثمّة من اهمال الافراد وتقصير الحكومات . ولذلك طالما فتكت بنا الاوباء .

وقد زدتُ انه تـأليفٌ ذو شأن للسان العرب ، لان الزميل نقَّب وفتَّش ودقق وبعث من الموت او النسيان ألفـاظاً طبّيَّة او ملائمةً للطبّ ، صميمة في العروبة ، في مقام ألفاظ ركيكة او أعجمية . وقد كنا نقول ، كفونوغراف يردّد تعبير الافرنج وبالاحرى الطليان : دفتريا ودوسنطاريا لمرضين عرفهما العرب ووضعوا لهما اسماً صحيحاً صريحاً : خناق ، وزحار .

اما الحكيم صادر ، فكما قال له الاخوان في جلسة حديثة لجمعية الاطبا ، قد بلغت به زيادة الغيرة الى الغلو . وهـذا شي ء مألوف في كثيري الغيرة ، فاستنبط لادنى شاردة او واردة كزغب ميكروب ما لفظةً لا تجدهـا الا في احدى زوايا المطوَّلات ، وهي احياناً تُطبّق اكثر ما تنطبق على الواقع .

ولماذا يُحظَّر في عصر البخار والكهرباء ، استعمال لفظـة : ميكروب ومتر او تيفوس او فعل : تلفَن وقد اجازوا في عصر متقدّم : فلسفة وموسيقى ، بل قميص وبستان ، ومنها ما أجمع عليه العالم كله في شتى اللغات .

واذ نحن في هذا الصدد ألا يحقُّ لي العتب على « الحبيب » بوضعه في اعلى الصفحة الاولى من كتابه لفظة: « الدكتور » حبيب صادر مع ان كلمة «حكيم» انيسة لطيفة شائعة حكيمة ا وهو الذي يغار على اللغة العربية الا يثق ان العلة الفاتكة بهذه اللغة انما هي وفرة مترادفاتها وقواعدها وشواذها وتقيدها بالرث، فيطلب منا نبذ لفظة: حبَّة (*pilule*) على صحتها وفصاحتها لاستعمال: الحترة.

رفقاً بنا يا اخي فما كلنا حبيب صادر ولا اليازجي ولا البستاني. فكثيرون لهم عذرهم اذا قالوا حمَّى مستمرَّة او ثابتة حيث قلتَ حمَّى « مردم » . ونحن قد كتبنا يوماً في « المشرق » في تفضيل الالفاظ اللطيفة المألوفة كالشهر « الماضي » على الغليظ الخشن: الدابر والمنصرم ومصدرهما . . . ان الاحاطة باللغة العربية لأمر مستحيل الا على النوابغ وبشرط ان يتركوا الطموح الى غير لغات والى العلوم العصرية ، مفخرة الانسانية.

وللاخ في كتابه ميلٌ الى الاطلاق والتعميم: والشاذ كثير في الكثير من الامور . خذ لك العبارة الاولى من المقدَّمة: « ان الامراض واسبابها وطرق وقايتها تختلف مع اختلاف الاقطار » . وليت وجدنا لفظة « قد » مقحمةً قبل «تختلف» ، ولا علم لنا ان الكوليرا او الملاريا الخ. تختلف طريقة انتقالها سوى بالماء او البعوض ، اكنا في الهند او باريس ام العراق او جوار رومة.

وقد ورد عن السعال الديكيّ: « لا » يصيب « الا » الاولاد « فقط » مع ان كثيرين ممَّن لم يُصابوا في صغرهم يصابون في الكبر. وفي جلسة ٢٥ نيسان من هذا العام روى في الاكادمي الباريسية الاستاذ الشهير هايم(حايم) انه اصيب وهو بالسنّ الخامسة والثمانين بهذا الداء. لانه ، وهو من زمن أُحيل على التقاعد بعيد عن جوّ معدٍ ، أقام هنيهةً مع مصاب بهذه العلّة.

وسطّر الاخ في الانذار لما هو من داء البرداء: « ان البرداء مرض « خفيف » الوطأة يُحدث اصابات كثيرة ووفيات « قليلة » واذا تداوى المريض يشفى تماماً » . شاء الله ان يجهل الحال والواقع كما شخّصها زميلنا !! اما المثبت فان البرداء ، امس واليوم ، آفة البشرية الكبرى. والاحصاءات تفيد انها تصب ٢٠ مليوناً في السنة وتُميت نحو ٥٠٠ الف نسمة ، ما عدا ما تتطلبه من ايام

تعطيل الاشغال. وهذا حتى بعد اكتشاف اثمن العلاجات: الكينا. الملاريا قتلت من جنود المستعمرات اكثر من رصاص الاعداء ؛ صرعت جيش الجنرال سرايل على ابواب الاستانة ؛ قرضت قبائل وشعوباً . وفي ديارنا قد وصمت نهراً باسم «الموت» وعيناً باسم « افرش له » وبلدة باسم «زوق الخراب» وأخرى «بالقبارية». وقائمة أذاها وقتلها استغرقت الصفحات في كتاب « علم الصحة » . أهي الخفيفة الوطأة ؟ وهي تسمّ الجسم سماً في حوادث كثيرة وتتعدد فيها النكسات الى سنين عديدة او للموت ، بدليل العبارة اللاتينية لمن يريد لغيره اثقل البلى واطوله او يدعو عليه بالزمانة :« فلتصبك حمى الربع » (نسميها المثلثة) . وهنا يقال : « جاب له الضيق من عتيق » ومنها كثير ما يعصو الكينا عينها

وجاء في صفحة ٥٠ « ان الانذار في الباراتيفوئيد يـدل دائماً على الشفاء وزوال الخطر .» لكن من زاول المهنة طويلاً او سمع خطاب استاذنا آشار الشهير في بيروت يعلم ان نوعي البـاراتيفيَّة شديدا الهول ايضاً وقـد يكون معدَّل الوفيات فيها كما في التيفيَّة الاصليَّة او اكثر . (والدقة اللغوية التي يرغب فيها زميلي صادر تقضي بالقول : شكل تيفيّ وحمى تيفيَّة لاتيفوئيـدية لان « الإيد » اليونانية تفيد هنا ما تفيده النسبة) .

ان ما تقدَّم من الملاحظات قضى به واجب الصراحة والاخلاص ؛ والصراحة والاخلاص يقضيان بالثناء الحميم على اجتهاد صاحب هذا التأليف الثمين ؛ واما خدمة الفن واللغة والمصلحة الخاصة والعامة فتقضي على الحكومات والمدارس الطبيَّة الشرقيَّة ، وعلى كل من استطاع ، باقتناء هذا الكتاب لما فيه من وقاية وسلامة من شرّ بليَّة للبشرية ! امين الجميّل

بولس وفرجيني

١٧٥ ص متوسطة – مكتبة صادر ، بيروت – الثمن : ٨ فرنكات

هي رواية مشهورة للكاتب الفرنسوي برناردَن دي سن پيير ، كان قـد نقلها الى العربية ببعض تصرّف المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي . وقد عرّبها مؤخرًا الاستاذ الياس ابي شبكه ، ونشرتها مكتبة صادر ، فاتت حلقة جديدة من سلسلة الروايات التي اخذت المكتبة المذكورة بنشرها هذه السنة .

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ نيسان — ١٥ ايار ١٩٣٣

لبنان وسورية — حصل في سورية ازمة وزارية اسفرت عن بقاء حقي بك العظم رئيساً ووزيراً للداخلية ، وتعيين الاستاذ سليمان الجوخدار للعدلية ، وشاكر نعمة بك الشعباني للمالية ، وسليم بك جنبرت للمعارف والاشغال العامة ، ويحيى بك الاطهلي للزراعة والتجارة .

* احتفل في حلب (٣٠ نيسان) بعقد المؤتمر الكاثوليكي الاول في هذه البلاد .

* اقيم في بكركي ، لتقليد البطريرك الماروني درع التثبيت ، مهرجان حافل اشتركت فيه السلطتان .

* انتخب السيد انطون العبد مطراناً على موارنة طرابلس .

* بدأت المواصلات التليفونية بين مصر ولبنان وسورية .

فلسطين — زار اللورد اللنبي القدس الشريف .

* افتتحت المواصلات بالتلفون اللاسلكي بين فلسطين واوستراليا .

* سافر المندوب السامي الى لندرة .

* لا يزال مهاجرو اليهود يصلون بكثرة من المانية خاصةً .

* تشتدّ الحاجة الى الماء في اكثر انحاء فلسطين .

مصر — سافر رئيس الوزارة الى اوربة .

العراق — تم انشاء خط تلفون بين بغداد وعمّان . وهناك خط بين عمّان والقاهرة . وبين بغداد والقاهرة باللاسلكي .

المطبعة الكاثوليكية المدير المسؤول : يوسف ماهر